د. موسى لقبال

عقبة بن نافع



https://albordj.blogspot.com

د. موسى لقبال

عقبة بن نافع



الاشراف الفني : حسين بروبة

بســـــــم الله الرحمـــن الـرحـــــــــم

تمهيـــد

ـ عقبة بن نافع ـ أو ملحمة الاسلام والعروبة والجهاد في بلاد المغرب .

ـ هذه سيرة بطل مجاهد التزم بمبدإ نشر الاسلام والعروبة ، في بلاد المغرب العربي الاسلامي .

ـ سيرة صحابي جليل سخر كل مواهبه ، وقدراته ، لخدمة عقيدته الاسلامية .

ـ سيرة تابعيّ ، من كبار التابعين ، تربى في أحضان كبار الصحابة ، رواد الاسلام ، وحركة الفتح .

ـ انها سيرة شاب تدرج في العمل ، والمسؤولية حتى بلغ درجة الكمال ، بالتزامه وبحماسه ، وارادته الخير ، والاحسان للانسان العربي في المشرق وفي المغرب أيضا.

ـ ولسائل أن يسأل لماذا عقبة دون غيره من الصحابة ، وكبار التابعين الذين اشتهروا بأدوارهم في بلادنا ؟ فنقول : اعتبارات في مقدمتها :

أ ـ أنه خير نموذج للقائد في مرحلة الشباب ، فحياته أبلغ درس لصنف الشباب الطموحين .

ب ـ وهو أحسن نموذج لصاحب المبدأ الذي يفني في مبدئه ، ولا يحيد عنه قيد انملة ، مهما كانت العقبات والتضحيات .

ج ـ وليس من بين الصحابة ، أو التابعين من كان له ما لعقبة ، من جليل الخدمات ، لسكان بلاد المغرب ، من أقصى نقطة في المشرق ، حيث برقة الى أقصى نقطة في المغرب ، حيث سبته ، فالكل يذكره ، ويشكره ويتبرك بأعماله وبمخلفاته .

ـ فقد تمكن عقبة بن نافع سيْرا وعملا من مسح خريطة كل المغرب العربي ، بصحرائها ، ووديانها ، وسهولها ، وهضابها وجبالها ، وبحارها ، ووقف على معظم عواصمها الاسلامية فيما بعد .

د ـ وتختص بلادنا بل تعتز بأن رفاته وآثاره الطاهرة مع جمع كبير ، من صحابة الرسول (ص) ، والتابعين

تحتضنها رقعة عزيزة من بلادنا ، في أقليم الراب ، بسكرة النخيل ، وضريحه حتى الآن محل تبجيل ، ولا يعرف الا بسيدي عقبة ، بل المدينة كلها مبالغة في الاعتزاز ، والتكريم ، ليس لها اسم رسمي غيرهذا الإسم ، فمن هوعقبة اذا ؟

1 ـ مولده ونسبه :

هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري القرشي ،

ولد قبل وفاة الرسول (ص) بسنة واحدة ، ولذلك يعتبر صحابيا بالمولد فقط لا بالصحبة والمجالسة ، والرواية ، وهو آخر الصحابة الذين تشرفت بهم أرض المغرب العربي ، وأحتضنتهم وحنت عليهم حنو المرضعات على الفطيم .

وقد كان يمت بصلة القرابة الى قائد فتح مصر ، عمرو بن العاص ، فهو ابنٌ خالته ولذلك أشرف على تربيته وتوجيهه ، وسمح بأن يكون من بين رفقائه ، مع أبيه نافع بن عبد القيس ، عندما عزم عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه على فتح مصر ، لحماية بلاد الشام المفتوحة ، فعلا ، من كيد الروم ، وعملائهم .

ـ وهكذا تحمل عقبة بن نافع الأغتراب ، وهو ما يزال دون الرابعة عشرة من عمره ، وسافر مع أبيه ، وكان

من جند عمرو تمرينا له وتدريبا ، فكان هذا بداية دروسه الميدانية العملية ، برعاية أكبر قادة الفتح الاسلامي : عمروبن العاص السهمي .

ولقد كان واضحا لمساعدي عمرو وهما : مسلمة بن مخلد الأنصاري ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، شدة محبة القائد لهذا الشاب الشجاع ، وعنايته بتربيته ، وتقريبه له ، وكأنما يمهده للأمر العظيم الذي توسم أنه سيكون أهلا له ، بعد فترة من المعايشة لرجال الفتح ، وخبراء الغزوات والحروب ، منذ عهد الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) ،

وهكـذا :

كان عقبة قرشيا من نفس دوحة الرسول (ص) ، وصحابيا له مهابه ، وحظي بما لم يحظ به غيره ، من عناية أكبر دهاة العرب وفاتحيهم ، فتدرب على الأعمال الشاقة ، وهيأ نفسه تهيئة كاملة وأصبح يتقد حماسا واستعدادا ، لكل ما يخدم عقيدته ، ويأمر به قائده الرائد والمربي .

ـ وميدان التجارب كانت بلاد مصر .

ـ أما مدرسة التجارب فكانت حركة الفتح الاسلامي منذ القرن 7م (1هـ) فلنقل كلمة عنها :

2 ـ سيرحركة الفتوح الاسلامية :

ـ هكذا أراد الله لبيئة العرب الهامشية التي طال عقمها ، ان تصبح ولودا ، وفي قلب العالم المعاصر انذاك ، في القرن 7م ، فاختارها مهدا لآخر الرسالات السماوية ، رسالة الاسلام ، وآن للعرب المغمورين في التاريخ ، أن يصبحوا دعاة رسالةوحملة ، أمانة ، ورسل علاقة الى الانسانية كلها ، اذ بعث فيهم ، ومن بينهم رسولا حسيبا نسيبا ، صادقا أمينا ، من بين أقوى وأغنى وأشهر قبائلهم ـ قريش ـ ومنها فهر قبيلة عقبة ، رضي الله عنه .

عمل الرسول محمد (ص) طيلة حياته على تحويل العرب الى أمة موحدة متماسكة ، بالدين ، مؤثرة فيما جاورها من بلاد وشعوب .

ولقد ادرك نجاحا كبيرا في مسعاه ، خاصة في شبه جزيرة العرب ، وفي اطرافها ، مما يلي العراق ، حيث قبائل عربية تخضع لنفوذ دولة الفرس الساسانيين ، ومما يلي الشام حيث قبائل عربية تخضع لنفوذ دولة الروم البزنطيين ، ولقد انبنت تحركات الرسول (ص) على تقوية الوحدة بين العرب اينما كانوا ، وعلى تحريرهم وإيصال نور الوحدانية ، لُبِّ عقيدة الاسلام اليهم ، والى غيرهم تنفيذا لأمر الله ، ووحيه ، بان الاسلام دين البشرية

وليس دين العرب وحدهم ، وأن رسول الله هو رسول البشارة والنذارة ، للناس كافة ، في المشارق والمغارب ، « وما أرسلناك الا كافةللناس بشيرا ونذيرا » .

وما لم يدركه الرسول في حياته القصيرة ، سهر عليه خلفاؤه الراشدون استنادا على القرآن ، والسنة .

واذا كان اختيار الحجاز بيئة العرب ، مهدا لهذه الرسالة الجديدة واختيار محمد العربي القرشي مبلغا لهذه الرسالة ، قد قضى على الاحتكار في هذا الميدان ! حيث الرسالات مقصورة من قبل ذلك على بني اسرائيل ، وتظهر في مهدها التاريخي في أرض الشام ، كما قضى أيضا بانقلاب في الأوضاع ، والادوار ، فان حركة أخرى نشآت تتميما لفلسفة الاسلام ، دين البشرية ، وترتب عنها ترجمة عملية لعالمية الاسلام ، فتم نشره خارج بيئة العرب ، فنشأت دولة اسلامية عالمية ، مركزها التاريخي المدينة المنورة ، وثقافة عالمية اساسها الدين الاسلامي ، واللغة العربية ، وتراث الانسانية الذي رعاه العرب المسلمون ، في كل الأقطار التي فتحوها ، وأصبحت جزءا من دولة الاسلام .

وهذه الحركة هي التي اعتاد المؤرخون أن يسموها حركة الفتوحات الاسلامية .

ـ وهي الحركة التي تمت في القرن 7م أي في وضح التاريخ العالمي ، وفي عمق العصور الوسطى الأروبية .

ولقد جرت على نسق رائع وجهه ورعاه الخلفاء الراشدون ، والامويون بعدهم .

وتم التوسع على حساب الأنظمة السياسية السائدة في ذلك الوقت وهي دولة الفرس الساسانيين ، ودولة الروم البيزنطيين .

فأتم الفاتحون العرب تحرير العراق وهضبة ايران ، وبلاد الأفغان ، والسند ، والهند ، والترك ، وأصبح نهر كاشغر حدا فاصلا بين نفوذ الاسلام وامبراطورية الصين شرقا ، وكان ذلك على حساب الساسانيين .

وكذلك أتم العرب الفاتحون تحرير الشام الكبرى ، وآسيا الصغرى وضيقوا الخناق على القسطنطينية ، وحرروا مصر ، ومنها انطلقوا لتحرير سكان بلاد المغرب وهم الأمازيغ أقدم العناصر السامية الشرقية بهذه البلاد .

ـ ومن بلاد المغرب اقتحموا أرض أروبا (شبه جزيرة ايبريا) ففتحوها ومدوا ظلال الاسلام الى أربونه باقليم سيتمانيا ـ بفرنسا الحالية ، فاصبحت هذه المدينة حدا فاصلا بين نفوذ الاسلام المنتصر وبين دولة الفرنجية .

ـ وأغلب هذه البلاد كانت تابعة سياسيا وحضاريا لدولة الروم البيزنطيين .

ـ في هذه الأنحاء ، في آسيا أو في أفريقيا ، أو في أروبا ، سهر المسلمون على نشر الاسلام كدين ، وكثقافة ، كما سهروا على نشر لغة الاسلام وهي اللغة العربية .

ـ ونجاح العرب المسلمين الرائع في دورهم التاريخي ، وسرعة انتصارهم في ضم ممتلكات الدولتين الكبيرتين : الساسانية والبيزنطية وهضمها ودمجها في دولة واحدة ، هي دولة الخلافة الاسلامية في المدينة ، ثم في دمشق ، وبغداد بعد ذلك .

ـ وسرعة اقبال رعايا الدولتين على اعتناق الاسلام والتأدب بآدابه ، والأخذ بثقافته ، حمل الكثيرين من المهتمين بحركات التاريخ الكبرى ، لاسيما من بين رجال الكنيسة المسيحيين ، على الاساءة ، الى دوافع نشاط الفاتحين ، فادعوا أن هؤلاء الفاتحين نشروا الاسلام بالقوة القاهرة ، على المسيحيين واليهود ، والزرادشتين ، فكان الفاتح يأخذ القرآن في يد ، والسيف في يد أخرى ارهابا .

ـ وانها لكذبة خطيرة حاول بها رجال الكنيسة اخفاء عيوبهم وتبرير هزائمهم ، والتنفيس عن غيظهم ،

وحقدهم ، على المسلمين الذين لم يتخلوا عن مقتضيات دينهم ، عند التعامل مع معتنقي الديانات السماوية ، ويفصح عنها قوله تعالى :

« أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » .

وقوله تعالى « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

ـ أن المهم بعد ذلك في حركة الفتح .

أ ـ انها حركة دينية قومية اصلاحية تحريرية ذات أبعاد انسانية وحضارية .

ب ـ لقد كانت سببا في ظهور العرب المسلمين كعنصر موجه في ميدان العلاقات العالمية .

ج ـ وقد ساعدت على تحرير الشعوب المظلومة والمضطهده .

د ـ كما ساعدت على حفظ الاستمرارية الثقافية والحضارية ، وعلى عملية التبادل الحضاري بين الشرق والغرب .

هـ ـ كما اضافت الى التراث الحضاري القديم ،

اضافات معتبرة اهمها ، الدين الاسلامي وثقافته ولغته وتراث العرب القديم .

و ـ ولقد كانت حركة الفتح بمثابة منجم لمعدن نفيس ومدرسة لاخراج خير القادة المحنكين . الملتزمين بالمبدأ ، المتفانين في سبيل إرسائه وانجاحه .

ـ انها الحركة الخيِّرة التي ساعدت على ظهور قادة خيرين ، ودعاة مؤمنين ، ومجاهدين مرابطين ، وفي أثنائها ، وفي شدتها ، وفي أهم ميادينها ، بلاد مصر ـ بوابة بلاد المغرب لمع نجم القائد الشاب ، والداعي المستجاب عقبة بن نافع القهري .

3 ـ عقبة وفتح مصر :

ان الضرورة الحربية أوجبت على عمرو أن يشرح للخليفة عمر بن الخطاب أثناء مؤتمر الجابية التاريخي ـ قرب دمشق ـ مزايا الاستيلاء على مصر ـ مركز نفوذ الروم ـ في حماية فتوح المسلمين ، ومكاسبهم ، في بلاد الشام ، من أي خطر محتمل ، من جانب الروم ، كما شرح له باسهاب ، وعلى خبرة بارضها وبسكانها ما تمتاز به من خيرات وارزاق يمكن أن تدعم مركز الدولة الاسلامية الناشئة وتنشط مشاريعها الكبيرة .

ـ وكان عمرو قد عرف مصر ـ في الجاهلية ـ اذ جاءها تاجرا أكثر من مرة ، كما عرف الحبشة أيضا وأقام فيها فترة .

ـ لذلك أستجاب عمر بن الخطاب ، لكنه قيد تحركات عمرو ، خوفا على مصير المسلمين من الروم ، والأقباط ، اذ كان المسلمون قلة ، وقد اعياهم ميدان الشام والعراق .

ـ والحديث عن فتح مصر بين سنتي **18** و **21** هـ.

أ ـ هو حديث عن **أول مدينة اسلامية عربية** أختطها عمرو ـ في مكان فسطاطة أو خيمة قيادته ، في مصر هي ثالثة المدن العربية الاسلامية في الترتيب ، اذ سبقتها الكوفة والبصرة أيضا في العراق .

ـ والمدن الثلاث كانت ثمرة حركة الفتح ، وابتدأت معسكرات ثم نمت ، وتطورت لتصبح مدنا وعواصم اسلامية .

ـ انها مدينة الفسطاط نسبة لفسطاط عمرو ـ التي أصبحت عاصمة مصر ، عوضا عن الاسكندرية م

ب ـ وهو حديث عن **أقدم مساجد مصر الاسلامية** .

وهو مسجد عمرو ، أو الجامع العتيق ،

ج ـ وهو حديث أيضا عن حركة العمران والبنـاء الفردي ، والجماعي ، في المدينة الجديدة ، وفي مصر كلهـا .

لقد وزع عمرو على القبائل ، وعلى الجند الفاتحين قطعا أرضية ، للبناء أصبحت تعرف بالخطط ، واختص كل فريق بخطة أو رقعة من الأرض ، ايتني بها دارا أو مرافق له ولاسرته .

وأقتطع عمرو خطة بني بها دارا لنفسه وحاز قطعة بنى فيها دارا للخليفة عمر ، كانت تقع بجوار المسجد للجامع ، وأرسل اليه يخبره الخبر السار فرد أبو حفص عمر الفاروق ، على عمرو بن العاص بقوله :

أنى لرجل بالحجاز ، تكون له دار بمصر ؟! وأمره بأن يجعلها مرفقا عاما للمسلمين ، فتكون سوقا لهم ! فما أعظمه من درس عمري لأولئك الذين يحرصون على أن يكون لهم في كل ناحية ممتلكات حتى ولو قاسموا الفقراء ما يملكون ، اذا لم يغلبوهم عما تحت أيديهم !

ـ ومن الذين قدر لهم أن يأخذوا خطة ويشيدوا دارا في مصر ، نافع بن عبد القيس الفهري ، أبو عقبة بن نافع ، وأخيه عبد الله بن نافع ـ وهما من رجال الحملة ،

ومن مرافقي ابيهما ، نافع وقريبهما قائد الحملة عمرو بن العاص بن وائل السهمي .

ـ ولقد كان نافع الفهري أخا للعاص بن وائل عن طريق أمه أي عماً للقائد العظيم .

فالقرابة الرحمية اعطت لهذه الأسرة فرصا ذهبية ، فضلا عما امتاز به افرادها من شرف الأصل ، واخلاص في العمل من أجل نشر الاسلام ، وتوطيد نفوذه السياسي في مصر ، من أجل تقديم أجل الخدمات للقائد المحنك والداهية الصحابي عمرو بن العاص .

ـ ولقد كان أفراد الأسرة وعميدهم نافع ـ عند حسن ظن القائد عمرو ورهن اشارته .

ومن ذلك ان حركة معادية للنفوذ الاسلامي في مصر ـ ظهرت هذه المرة في أقصى حدودها الجنوبية ، وراء أسوان ، حيث الأساود وهم عناصر زنجية من البجة والنوبة سولت لهم أنفسهم اقلاق راحة المسلمين في مصر ـ فما كان من القائد عمرو الا أن أرسل اليهم حملة عسكرية لتأديبهم ، عهد بقيادتها الى نافع بن عبد القيس الفهري الذي يبدو أنه صحب معه ابنيه : عقبة ، وعبد الله ، تدريبا لهما على الأعمال الشاقة ، واستئناسا بصحبتهما ،

فأصبحت لهما خبرة ، بهذه البلاد ، استثمرها ولاة مصر بعد عمرو بن العاص وبخاصة عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي خلف عمرا في مصر مباشرة .

ـ وقد تمكن نافع بن عبد القيس ، وأفراد الحملة الصيفية (صائفة) من اقرار الأوضاع ، على حدود مصر ، واخضاع النوبة ، والزامها بهدنة دائمة مع المسلمين ، وبان تدفع مقابل مهادنتها سنويا مبلغا كبيرا من الحيوانات والعبيد ، وأن لا يحدث أهل النوبة قلقا على الحدود ، ولا يهيجوا المسلمين ، وهذا ما يسمى بالبقط أو العهد والمسلمون بدورهم يمدونهم نالاقوات ! ويسمحون لهم بالتجارة ، وبزيارة مصر بدون أن يقيموا فيها .

ان الفضل في كل هذا يرجع الى نافع وابنيه عقبة ، وعبد الله ، وهم ثقة القايد ، والوالي فلما أصبح ابن أبي سرح واليا على مصر بعد عمرو تحركت عناصر النوبة من جديد ، والجأوا والى مصر الى اقتحام دمقلة ، عاصمتهم وقتالهم ، وارجاعهم الى سنة الهدنة أو البقط القديم ، هذا بعد أن تكبد خسائر جسيمة بسبب كثرتهم وبعد الشقة وانشغال ابن أبي سرج بطلائع حركة الشغب والفتنة في الامصار الاسلامية ، احتجاجا على سياسة الخليفة عثمان رضي الله عنه .

ـ ولقد أصيب يومئذ رجال ، في عيونهم فبقي العطب معهم مستديما ومنهم : أبو شمرين ابرهه ، وحيويل، بن ناشرة ، ومعاوية بن حديج ، الذي سيصير له شأن في فتوح افريقية فيما بعد ، ولهذا الحادث أصبح النوبة يعرفون ، برماة الحدق ، وعبر الشاعر عن أثر الاقتتال بقوله :

لَــمْ تَرَ عَيْنِــي مِثْــلَ يَــومِ دُمْقُلَــهْ
والخَيْــلُ تَعْــدُو بالدروع مُثْقَلَهْ

4 ـ عقبة بن نافع في برقة مستطلعا .

ـ أمن المسلمون على ممتلكاتهم في بلاد الشام ،

بعد أن استقروا في مصر ـ وامكنهم تأمين حدود مصر، من ناحية الشام الاسلامية .

ـ وأقتضى الأمر بذل جهد كبير لتأمين حدود مصر جنوبا من جهة النوبة والسودان ، وبرز في هذا الجهد دور الفهريين بقيادة نافع بن عبد القيس .

وبقي على والى مصر أن يعمل على تأمين حدود مصر الاسلامية ، من ناحية الغرب ، حيث أقليم متسع يموج بعناصر بشرية كثيفة ، ويرابط فيه الروم البيزنطيون بحامياتهم العسكرية ، ولهم فيه مدن كبيرة محصنة مثل

برقة وطرابلس وقرطاجنة ، وعناصر تتعاون معهم مثل المسيحيين من السكان ، وعنصر الافارقة المهجنين ، انه اقليم بلاد المغرب ، حيث عالم الأمازيغ أو البربر وهم أقدم عناصر سكانه الشرقيين الساميين ، أو اعرق سكانه العرب الشماليين والجنوبيين .

ألفت عمرو بن العاص الى هذه الناحية بعد عقد معاهدة الاسكندرية 641/21 م .

ولم يجد ما يكفيه أمرها ، ويكشف له عن احوالها ، وسبلها ، وعلاقاتها ، ويوطئ أرضها ، غير أقرب الناس اليه ، وإلى نفسه ، من خبره فوجده صلب العود ، قوي النفس ، شديد الحساسية لدينه ، ولوعا بالمغامرة ، وبالحرب المقدسة ، اعلاء لراية الاسلام ، ونشر لدينه في الآفاق البعيدة : انه عقبة بن نافع الفهري .

وهنا وقفة يسيرة لتسجيل :

أ ـ أن عمرا بن العاص كانت له فراسة صادقة في عقبة وانه عرف حق المعرفة انه لا يصلح لسكان المغرب الا هو في شدته وصلابته ، وميله الى المغامرة والحروب ، مثل ما اشتهر عن طبائع سكان بلاد المغرب أيضا.

ب ـ وان عقبة لم يخيب ظن قريبه وقائده فكان نعم القائد الميمون الطائر ، الحسن النقيبة .

ج ـ وان العلاقة التاريخية الابدية التي ربطت بين هذا القائد القرشي الشاب ، وبين سكان بلاد المغرب ، ولدت منذ هذه اللحظة لتبقى على مر الأيام ذكرى حية خالدة ، تغذي النفوس والمشاعر المؤمنة ، بأحسن معاني التضحية والنبل ، والجهاد المقدس ، لتحرير المضطهدين المظلومين ، والمحرومين ، ورفع رؤوسهم عالية أمام غاصبي أرضهم وخيراتها ، وطاقات سكانها ، الروم البزنطيين أحفاد الرومان الغزاة القدماء .

د ـ ولم يحصل أن فارق عقبة مختارا هذه البلاد التي أحبها وكرس حياته لخدمتها ، الا فترات يسيرة ، لأداء مهام خاصة ، في المدينة المنورة ، أوفي الفسطاط ، أوفي دمشق ، ثم يعود سريعا اليها داعيا ، مرشدا ، أو واليا فاتحا ، حتى توفاه الله على أديمها شهيدا مجاهدا سنة 64 هـ ، وهكذا وعلى مدى أكثر من اثنتين وأربعين سنة أي منذ 22 هـ أنجز من الأعمال الكبرى في ميادين الكشف ، والحرب ، والتنظيم ، والادارة ، ما تراه في الفقرات التالية وما يستحق معه بجدارة لقب الأفريقي حقا ، المغربي صدقا .

ولقد استهل عقبة بن نافع نشاطه فيما يلي حدود مصر غربا ، بعمليات استطلاع ، واستكشاف للمنطقة والتعرف ، على سكانها ، ومجموع قبائلها ، وعاداتهم ، وطباعهم

ودياناتهم ، وعلاقاتهم بغيرهم ، من القبائل المجاورة والبعيدة ، وأثر النفوذ الرومي البيزنطي السياسي والمعنوي بينهم .

ـ وكان احتكاكه بمجموعة العشائر البترية البدوية التي يجمعها قبيل لواته أوبنو الوا الأكبر ، وكانت تنتشر على ساحات منطقة برقة وقد عرف من قرب كيف أن هذه القبيلة ناضلت طويلا ضد الرومان والوندال والروم البزنطيين ، وانها نابذتهم وبينها وبين البزنطيين خصوصا ثارات وأحقاد ، ويمكن أن يكون قد عرف كيف أن هؤلاء السكان البدو يرقون بأصولهم وأنسابهم الى بدو العرب الشماليين الذين هاجروا في ازمنة غابرة واستقروا في هذا المكان .

ـ ان مجموع هذه المعلومات والأخبار عن برقة وعن سكانها وضعها قائد البعث الاستطلاعي الشاب : عقبة أمام أنظار والى مصر عمرو بن العاص ليرى رأيه في الخطوة التالية .

ـ وهذه المعلومات كما ترى مشجعة الى أقصى حد لاتخاذ قرار باقتحام المنطقة تأمينا لحدود ولاية مصر ، ومتابعة للروم البزنطيين المتضررين من نجاح حركة الفتح الاسلامي ، في الشام ومصر .

ولكي يقضي على املهم في العودة الى هذه البلاد ، انطلاقا من مواقعهم في برقة أو في طرابلس ، أو في افريقية وبلاد المغرب عموما .

5 ـ عقبة بن نافع مع عمر فاتحاً :

اتخذ عمرو بن العاص قرارا بتسيير قوتين كبيرتين الى أعمال الفتح في منطقة برقة وصحراوتها .

قاد احدى القوتين بنفسه ، وتوجهت عبر الطريق الساحلي شمالا الى مدنة برقة (المرج) نفسها ، تم الى كامل مدن الأقليم الخمس التي أعطت اسمها للاقليم فاصبح يعرف بأقليم انطابلس (PONTAPOLIS) أي المدن الخمس .

أما القوة الثانية فقد كلف عمرو عقبة بن نافع بقيادتها ، وانطلقت بعد القوة الأولى ، ووجهها عمرو الى الأقاليم الصحراوية الجنوبية في فزان ، وزويلة ربما عبر الطريق الصحراوي ـ طريق القوافل الممتد عبر الواحات ، من الصعيد الى صحراوات فزان وزويلة .

وقد حالف التوفيق كلتا القوتين ، فبينما قبلت لواته وأحلافها بمبدأ الصلح مع عمرو بن العاص ، على أساس التبعية للمسلمين ، ودفع الجزية اليهم ، تعبيرا عن ذلك ،

بمعدل دينار واحد ، على كل رجل بالغ قادر على حمل السلاح ، نجح عقبة أيضا في نشاطه في صحراوات قزان فلم يلق مقاومة تذكر عندما كان متوجها الى زويلة (السودان) في أقصى جنوب برقة ، وتمكن من اقناع هوارة أصول عشيرة بني خطاب أصحاب زويلة بقبول الاسلام أو دفع الجزية للمسلمين ، ويبدو أن اغلبيتهم مالوا الى الموادعة في اطار الاسلام ، لأن الرواة يشيدون بهدؤ تلك الأقاليم ، وسلامة مواقف سكانها وطواعيتهم ، والتزامهم بالاسلام أو بدفع الجزية مثل سكان برقة في الشمال .

ـ ولم يكن الأمر الذي تقرر معهم يحتاج الى جباة يأتون في المواسم لأخذ مبالغ الجزية الى مصر ، بل كانوا يرسلونها بأنفسهم اذا حان وقتها ، فكانوا على حد تعبير الرواة اخصب قوم بالمغرب كله ، وهذه الميزة الطيبة لسكان برقة وصحراواتها ، حفظها لها عمرو وابنه عبد الله ، وقريبهما عقبة بن نافع فقالوا في هذه البلاد ما يشرف سكانها ومن ذلك قول عمرو : ان لأهل اتطابلس عهدا يوفي لهم به ، وقال ابنه عبد الله : لولا مالي بالحجاز لنزلت برقة ، فما اعلم منزلا أسلم ، ولا أعزل منها .

ويجمع الرواة على النجاح الكامل لأعمال عقبة

في هذه البلاد ، ويروون رسالة لعمرو وجهها الى عمر بن الخطاب « يعلمه انه ولي عقبة بن نافع المغرب فبلغ زويلة ، وان من بين زويلة وبرقة سلم كلهم حسنة طاعتهم ، قد أدى مسلمهم الصدقة ، وأقر معاهدهم بالجزية » (الضريبة الشخصية) .

وانه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه .

ـ وفي مثل هذه الظروف الحسنة بعد فتح برقة وزويلة دون مشقة ، وأصل عمرو بن العاص سيره شمالا على الطريق الساحلي حتى طرابلس الغرب أو اقليم المدن الثلاث « لبدة ـ أويا ـ صبراتة) فافتتحها بعد عناء ، بسبب مناعة أسوارها ، ودفاع الروم عنها ، بمساعدة قبيل من السكان النصاري ، وهم نفوسة سكان الجبال المعروفة بهم جنوب غربي طرابلس ، وأرسل عمرو بعثا آخر الى اقليم ودان جنوب سرت ويدخل في اقليم فزان الواسع الأرجاء وكنن يقوده بسرين أي ارطاة ، فحصل له توفيق كبير مع سكان هذا الاقليم .

بحيث لم يبق بعد فتح الاقاليم الساحلية في برقة وطرابلس والصحراوية الداخلية في فزان وزويلة وودان غير قابس وجربة ، وجرجيس ولماكانت هذه المدن محصنة

وقريبة من مزكر ثقل الروم في قرطاجنة الساحلية ، أو في سبيطلة الداخلية ، فان عمرا لم يشأ أن يجازف بأرواح المسلمين قبل أن تكتمل عدته ويملأ صفوفه من قاعدة الفتح في مصر وهي الفسطاط مركز ولايته ، وقبل أن أن يستطلع أيضا رأي الخليفة عمر بن الخطاب في المدينة المنورة ـ فلما كتب اليه يستأذنه في التقدم الى عمق افريقية (تونس) نهاه خوفا على مصير المسلمين وسط أرض لم تكتشف بعد ، وفي محيط بشري كثيف متقلب الاهواء ـ فرجع الى مصر سريعا ، لأنه خاف على عاصمتها التاريخية وهي الاسكندرية ذات الموقع البحري والاستراتيجي من حركات الروم المتهيئين للانقضاض عليها .

6 ـ عقبة في برقة مرابطا :

يبدأ هذا الدور في حياة القائد الشاب ، منذ أن تركه قريبه عمرو بن العاص في برقة ، عقب انسحابه الى الفسطاط أوخر 23 هـ ، ويستمر بعد ذلك أكثر من ربع قرن أي الى 50 هـ ، وأهداف عمرو هي : ابقاء قاعدة برقة قاعدة ثابتة موالية للمسلمين في مصر ، والمحافظة على صلات قوية مع سكانها ، من بترلواته المعاهدين .

كذلك حرص عمرو على أن يكثر عدد المسلمين فيها ، بفضل نشاط عقبة في الدعوة الى الاسلام ، والى الالتحام مع المسلمين ، جيرانهم في مصر.

وقد برهن عقبة على مقدرة وكفاءة ، في ميدان الاتصال ، بالسكان وربط أواصر الحلف معهم ، والتقرب منهم ، الى أبعد الحدود ، لذلك نجده يتزوج في هذه المرحلة ، بأميرة من لواتة ، ويصبح بمقتضى المصاهرة أشد تقربا من هذه القبيلة ومن شيخها المرموق ، وقد انجبت له هذه الأميرة أكبر أولاده أبا عبيدة فاصبحت تكني به وتعرف بأم أبي عبيدة فضلا عن ابناء آخرين انجبتهم هذه الأميرة اللواتية الأثيرة في قلب القائد الشاب .

ـ ولقد ادى عقبة خدمات جليلة لحركة تقدم الاسلام في المنطقة ، بفضل نشاطه ، وتفانيه في الدعوة ، ومحبة الشكان له ، وتعلقهم بشخصية ، الى درجة الافتتان .

7 ـ عقبة ونشاط ولاة مصر بعد عمرو.

ـ أما الخدمة الكبرى فهي تسهيل مهمة رجال البعوث الاستطلاعية والحملات العسكرية التي انطلقت من الفسطاط وتوغلت في عمق افريقية حيث مركز ثقل الروم البزنطيين ، عبر برقة ، وطرابلس .

ولقد سن عمرو سنة ارسال السرايا والحملات الصغيرة ، للكشف ، ولأخذ الغنائم واحتذى من جاء بعده بسنته

بعد عزله عن مصر ، في بداية عهد عثمان بن عفان ، لخلاف في الرأي نشب بينهما حول ولاية مصر .

وآلت مصر في هذا العهد الى أحد مساعدي عمرو في فتح مصر ـ أخى عثمان من الرضاع ، وهو عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري الذي كان يعرف عقبة جيدا ، ويقدره ويحفظ له مكانته ، على ما كانت تنطوي عليه نفسه تجاه جرأته ومغامراته العسكرية وشجاعته في ابداء الرأي أمام القادة الذين كانوا يكبرونه .

ـ ومع ذلك يمكن أن نتصور مدى الخسارة التي لحقت بعقبة الذي كان يجد في عمرو أبا حانيا وقائدا مربيا وموجها ، وسندا قويا عند المشاكل والاخطار .

ـ لكن مع هذا ، فابن أبي سرج ما كان ليستطيع تجاهل عقبة بعد هذه الخبرة الطويلة بالأرض وبالسكان ، لذلك اعتمد عليه أثناء قيامه من الفسطاط بحملة عسكرية منذ سنة 27 واقتحم بها عمق افريقية عبر برقة ـ وعسكر في بعقوبة ـ قرب مدينة سبيطلة التي اعتصم بها القائد الثائر جرجير ، وهذه هي المشهورة بحملة العبادلة السبعة (لوجود شخصيات باسم عبد الله) .

ولا يهمنا من احداث هذه الحملة الا ما يتصل بعقبة بن نافع ـ الذي رافق الحملة وقدم لقائدها كل التسهيلات

الممكنة ، ولما حالفها التوفيق في معركة سبيطلة ، كلف ابن أبي سرج : عقبة بن نافع بالسفر الى المدينة المنورة بمعية عبد الله بن الزبير ، لتبليغ الخليفة انباء النصر الكبير الذي مَنّ الله به على المسلمين . في عمق أرض افريقيـة فادى عقبة ورفيقه المهمة بكل دقة وشرح كلٌّ للحاضرين في مسجد الرسول (ص) أحوال الجيش وانتصاراته ، وما حصل عليه من أموال وغنائم ، لقاء مهادنة بقايا الروم والافارقة واحلافهم .

عاد ابن أبي سرج الى مقر ولايته في الفسطاط دون أن يترك واليا في سبيطلة أو حامية عسكرية ، أو يضع نواة قاعدة اسلامية تخلد النصر ، وانغمس بعد ذلك في أحداث مصر والمشرق ، وفي الصراع مع الروم في البـحر الذي توج بانتصاره عليهم في معركة ذات الصواري 34هـ ، وأصيب المسلمون بظهور فتن وحركات احتجاج ، ضد عثمان رضي الله عنه ، بسبب أنه قرب اليه عصبيته الأموية ، وآثر رجالاتها بالمناصب الكبرى ومنهم معاوية والي الشام؛ وابن أبي سرح العامري والي مصر .

لم تنته هذه الحركات الابقتل الخليفة عثمان 35هـ فيما أصبح يعرف فيما بعد بالفتنة الكبرى التي تبعتها حوادث كبرى جرت بين فريق يطالب بدم عثمان ،

وعلى رأسهم معاوية ، يساعده والى مصر القديم عمرو بن العاص مقابل ارجاعه بعد النصر ، الى ولايته القديمة ، وفريق آخر مع الخليفة الشرعي علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، يطالب بالوحدة حول الخليفة الجديد .

ـ وفي غمرة هذه الأحداث تناسى المسلمون حركة الجهاد في افريقية ضد الروم ، وتركوا مكاسبهم في هذه البلاد دون رعاية أو عناية ، ومن ذلك جماعات اسلامية هنا ، وهناك تركت لمصيرها .

ـ فلو لم يكن عقبة بن نافع يمثل الحضور العربي الاسلامي في برقة في هذا الوقت ، لأمكن القول بأن العرب انصرفوا نهائيا عن هذه البلاد ، وربما بدا لكثير من هذه القبائل هنا وهناك ، وقد احست فراغا هائلا بسبب الانصراف ، انها اصبحت غير مقيدة بالعهود القديمة التي كانت تربطها بالفاتحين المسلمين ، ولذلك حدثت حركات امتناع عن اداء الجزية في برقة وصحراروواتها ، وحصل تمرد في طرابلس و ودان ونواحيهما ؟

ولان امكانيات عقبة كانت لا تفي بالغرض ، اذ ليس معه حامية ، وحضوره انما كان يمثل رابطة الحلف ، والصداقة ، فانه لم يستطيع أن يفعل شيئا ، وبقي قلقا ، وفي تنقل دائم بين برقة ؟ حيث بيته ، وبين الفسطاط

حيث منزل أبيه وأسرته ، وذكرياته في مصر ، ينتظر انتهاء الحرب الأهلية بين المسلمين ، للقيام بما يجب .

ـ ورغم أن المصادر لا تذكر عنه أنه عمل لفائدة هذا التفريق أو ذاك ، فالأرجح أن يكون في شق ابن خالته وقريبه وقائده ، داهية العرب عمرو بن العاص ، لأن مساق الحوادث بعد ذلك جاء مؤكدا لهذا الاتجاه .

اذ بعد أن استرجع المسلمون وحدتهم حينما خلص الأمر نهائيا لمعاوية بن أبي سفيان بعد سنة 40 هـ ، وآلت مصر الى عمرو بن العاص ولاية وراثية عاد النشاط العربي من جديد في الجبهة المغربية أولا بواسطة مجموعة من السرايا وجهها عمرو بن العاص ثم تصدر النشاط بعد ذلك وخاصة بعد وفاة عمرو 43 هـ ، قائد جند مصر ورئيس حرب العثمانية فيها ، معاوية بن حديج السكوني الكندي الذي كلفه الخليفة معاوية بن أبي سفيان بمهمة مواصلة عمليات الفتوح في بلاد افريقية منذ سنة 45 هـ .

ـ ويهمنا أن الحملة التي قادها ابن حديج لقيت مساعدات جمة من عقبة بن نافع الذي أصبح بمثابة خبير في حرب بلاد المغرب خاصة في الصحراء ، أمكن لابن حديج ـ بناء على رأى مساعديه وأهمهم عقبة أن يتخذ نقطة ارتكاز دائمة في عمق افريقية ، بجوار مرتفع

القرن ، في اقليم قمونية ، أي في نفس المكان الذي ستقوم فيه مدينة القيروان .

ومن هذا المكان الذي حط فيه رحالة ومستودعاته ، أرسل حملات صغيرة للكشف والفتح ، في اجزاء كثيرة من افريقية .

ـ حملة قادهاعبد الملك بن مروان ضد حصن جلولاء ، فلما وفق سيره الى بنزرت ، وقاد ابن الزبير حملة أخرى ضد سوسة بينما توجه رويفع بين ثابت الأصاري على رأس قوة الى جربة .

8 ـ عقبة أسد الصحراء :

ـ أما عقبة بن نافع فقد كلف بمسح المنطقة الصحراوية بدءا من سرت ، وصحبه في هذه الرحلة التي استمرت نحو خمسة أشهر بسر بن أبـي أرطاه ، وشريك بن سمي الغطيفي المردي ، وقد سبقت لهما تجارب في ميدان الفتوح والكشف ، في صحراوات برقة وطرابلس ، وودان .

وفضلا عن هذين القائدين فقد صحب عقبة نحو أربعمائة فارس على أربعمائة جمل ، تحمل زاد الطريق من المؤونة وثمانمائة قربة ماء .

وكانت ودان ـ جنوبي سرت هي أولى المحطات في هذه النزهة العسكرية ، فاقتحمها عقبة وعزّر شيخها حتى لا يفكر في معاودة التمرد مرة أخرى ، وأخذ منها الجزية قدرا كبيرا من الرقيق ، ومنها توجه نحو جرمة ـ مدينة عنصر الجرمانت القدامى ـ وكانت عاصمة فزان الكبرى ، فلما قرب منها دعا أهلها الى الاسلام ، فاستجابوا ، واستقبل شيخ المدينة وأميرها ، وشدّد أثناء الاستقبال ـ على ضرورة الالتزام بالطاعة ونبذ التمرد والعصيان .

وأخذ من جرمة جزية أخرى عبارة عن عدد معتبر من العبيد .

ويظهران أخذ العبيد في الجزية كان شيئا مألوفا في هذه الجهات ، كما في النوبة ، فالبلدان معا يطلان على مركز العبيد في تلك العصور . . .

ـ وبعد جرمة امكن لعقبة أن يفتح بقية قصور فزان الثانوية ، وعندئذ سأل عقبة الدليل عن بقية القصور فأجابه : اقليم كوار وقصبته قصر خاور ، ويوجد في الصحراء الكبرى جنوب فزان ، وبعد أن افتتح هذه القصور سأل الدليل مرة أخرى عما بقي بعد كوار ، فأجابه الدليل ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة ، فأنتهى عند هذا الحد ، وكان قد نفذ الماء عند أفراد السرية واصابهم عطش شديد

أشرفوا بسببه على الموت لولا ان رحمة الله قريبة من المحسنين اذ جعل فرس عقبة من شدة عطشه ، يبحث برجليه في الأرض ، حتى كشف عن صفاة انفجر منها الماء ، فبدأ الفرس يمص ذلك الماء فتنبه عقبة ، ونادى بأفراد السرية ان احتفروا فحفروا احساء وشربوا وملاءوا قربهم ، وزالت عنهم الشدة ـ وهذه الحادثة تعرف بحادثة ماء الفرس واسم المكان مازال يعرف بذلك أيضا ، تخليدا لهذه الذكرى .

وفي طريق عودة عقبة الى مركز انطلاقه في سرت مر على زويلة ، لتأكيد ولائها ، ومن سرت دخل عمق أرض قبيلة مزاتة جنوب سرت فأخذ قصورها وضمن ولاءها ، وأرسل امامه بعثا من الفرسان الى غدامس جنوب غربي طرابلس ففتحوها ورجعوا اليه ، وتوجه الجميع هذه المرة نحو اقليم الجريد (قسطيلية) وأم مدنها توزر ، ثم الى مدينة قفصة الحصينة فتم فتحها وفتح اقليم الجريد ، وعلى أثر ذلك التحق عقبة ومن بقى معه برجال الحملة الرئيسية في اقليم قمونية بجوار معسكر القرن ، قرب مكان القيروان ، حيث يقيم معاوية بن حديج .

ويبدو أن عقبة حاز تقدير قائد الحملة ، بفضل هذه الانجازات الكبرى في الصحراء التي أضافها القائد الى

أعماله في المناطق الساحلية الشمالية فانعقد الود بين الرجلين من يؤمئذ ، ويبدوان عقبة عاد مع الحملة عند ما انتهت مهمتهما الى دمشق ـ عبر مصر ـ حيث الخليفة معاوية الذي يكون قد سمع من قائد الحملة ثناء جميلا على عقبة اعتبر وكأنه تزكية خاصة له لكي يقوم بمواصلة الفتح كقائد وكرئيس موجه من قبل الخليفة نفسه .

9 ـ استراتيجية عقبة القائد :

استجاب الخليفة معاوية لنصائح قائده وصفيه معاوية بن حديج وانصف عقبة وجازاه على حسن جهاده وبلائه ، عندما عينه لأول مرة قائدا فاتحا مستقلا ، بالنظر والتدبير ، في أمر انجاح حركة الفتح ، ونشر الاسلام ، وتثبيت أقدام العرب في بلاد المغرب ، وكان ذلك سنة 50 هـ 670 م ، أي بعد أكثر من ربع قرن قضاه عقبة في النشاط الدائم ، في هذه البلاد ، بصفته مكتشفا أو قائد سرية ، أو مرابطا في برقة أو مساعد القادة الحملات ، أي كان في هذه المرحلة مرؤوسا وتابعا ، أما الآن فقد أصبح رئيسا وقائدا مسؤولا امام الخليفة نفسه ، وهذا تطور عظيم في حياة عقبة ، وصل اليه نتيجة الجد والصبر والاخلاص ، ومن ثم فان معاوية الخليفة لم يفعل أكثر من وضع الرجل

المناسب في ميدانه المناسب ، انه وضع للشيْ موضعه الصحيح ، دون محاباة أو تفضل .

ـ فعلى خلاف أغلب قادة الفتح الذين كانوا يأتون ثم يعودون سريعا ، دون ابقاء أثر يذكر بنشاطهم أو يرمز الى نيتهم في ابقاء حضورهم المادي والمعنوي ، نرى عقبة يطور نظرة العرب الى بلاد المغرب ؛ ويعطي للنضال ضد الروم واحلافهم في هذه البلاد بعدا جديدا فيجب في نظره أن يتأسس النضال منذ الآن على الارتكاز على قاعدة استراتيجية ثابتة في عمق الأرض الافريقية ، وعلى مبدأ التنسيق مع السكان ، للعمل المشترك انطلاقا من هذه القاعدة الداخلية ضد عدو واحد مشترك ، وهم الروم ، وليس يغذي حركة النضال هذه الاحرص أكيد على تحرير السكان وترشيدهم سياسيا ، ونشر الاسلام وعقيدة الوحدانية بين اظهرهم .

وخلاصة رأيه صاغه في قوله لرجال الحملة « ان افريقية اذا دخلها أمير تحزم أهلها بالاسلام ، فاذا خرج منها رجعوا الى الكفر ، واني أرى أن أتخذ بها مدينة نجعلها معسكرا وقيروانا ، تكون عزا للاسلام الى آخر الدهر . ».

فأعجب أصحابه بالفكرة الجديدة ، وتحمسوا لبناء هذه القاعدة التي تعزز نشاطاتهم ، وذلك بسبب بعد

قاعدتي برقة ، والفسطاط ؛ وفي غمرة الحماس اقترح البعض بان تكون هذه القاعدة قريبة من البحر ، ليعظم أجر ساكنيها بوصفهم مرابطين ، لكن هذا الاقتراح أستبعد بسبب المخاطر التي ستحدق بالمسلمين ، بسبب تفوق الروم في ميدان البحر ؛ كما استبعد اقتراح آخر ؛ يدعو الى التوغل ؛ بها في الداخل بعيدا عن أذى الروم والافارقة ، وذلك على أساس انه يعرض القاعدة ، وسكانها لمخاطر السكان الأهليين ، وبرز أثناء التداول حول أصلح الأمكنة للمدينة الجديدة ـ رأي وسط يدعو الى اختيار مكان في اقليم الهضبة الوسطى ، وفي اقليم قمونية نفسه ؛ حيث قام معسكر القرن التاريخي في عهد ابن جريج ؛ لأن ذلك سيجعلها في مأمن من الأخطار ، وفي نفس الوقت سيتيح لها مراقبة الساحل ، والداخل معا بحكم عدم بعدها عن المجالين ، ورأى أصحاب الرأي أن لا تبتعد المدينة عن اقليم السباخ ، حيث تتوفر المراعي التي تحتاجها مواشي المسلمين وابلهم .

وبعد الاتفاق ، ركب عقبة وبعض اصحابه ، لارتياد أصلح الامكنة وفي موضع مدينة القيروان الحالية ، ركز عقبة رمحه في الأرض ، وقال هذا قيروانكم ، فبدأ الجماعة يهيئون المكان للبناء ، لأنه كان غابة كثيفة الأشجار ؛ وارتاد عقبة مكانا آخر للمسجد الجامع ، وركز

رمحه مرة أخرى وقال هذا محرابكم ،! وبدأ القوم العمل في بنائه ، وفي بناء دار الامارة الى الجنوب منه ؛ حيث ينزل الوالي بأهله وحيث يباشر أمر الولاية .

ـ والذي أملى على عقبة اختياره لمكاني المسجد ؛ ودار الامارة هو توفر الماء في هذا المكان ، بسبب وجود بئر قديمة أصبحت تعرف فيما بعد بئر أم عياض ؛ ربما نسبة الى زوجته اللواتية ، أم أبنائه أبي عبيدة ؛ وموسى ؛ وغياض ، والتفت عقبة بعد ذلك الى الأرض التي كانت تقع بجوار المسجد ، ودار الامارة ، فقسمها على القبائل والاجناد قطعا أرضية ، تسمى كل قطعة منها خطة ؛ بهدف بناء دور ومنازل ومرافق للمدينة الجديدة ؛ واختص كل قبيل بناحية وحي ؛ فالفهريون آل عقبة مثلا ، كان حظهم قطعة أرض تقع شمال المسجد الجامع ، بنوا بها مساكنهم ، وقامت فيها بساتين جمة لهم ؛ واصبح المكان كله يعرف بمنازل الفهريين ؛ وهكذا غيرهم من العشائر والاجناد .

ـ وهذه السنة قلد فيها عقبة مؤسسي المدن العربية الاسلامية قبله وهم : سعد نن أبي وقاص بانى الكوفة وعتبة بن غزوان المازني باني البصرة ؛ وعمرو بن العاص باني الفسطاط وتقليد عقبة لعمرو ، وتأثره بشخصيته

وبأعماله ومنها ، الحرص على تخليد التاريخ الحضاري والسياسي بانشاء القيروان ، لا تحتاج الى تفصيل ، فعقبة يدين لعمرو بالكثير مما احرزه من أمجاد ، ومن انتصارات وشهرة .

ـ ولقد أصبحت القيروان يعد بنائها نواة لولاية جديدة لم تتضح بعد حدودها ، كما كان الحال من قبل مع الفسطاط في ولاية مصر الاسلامية .

وهنا تنسب النصوص كرامة لعقبة كولي ، وذلك بمناسبة البدء في تنظيف المكان فقد خاطب عقبة بأعلى صوته الوحوش والحيوانات المتواجدة في الغابة بقوله « يا أهل الوادي أرحلوا رحمكم الله ، فأنا نازلون ، وأنا من وجدناه بعد ثلاثة أيام قتلناه ، فجعلت الحيات والحيوانات تخرج ، في مجموعات كبيرة ، تحمل صغارها ، فاستراح المسلمون من اذاها بعد ذلك ، لمدة طويلة .

وعندما تم البناء ، بعد أربع سنوات 51 ـ 55 هـ دعا عقبة لمدينته الجديدة فقال :

« اللهم املاءها علما ، وفقها ، وأعزّ بها الاسلام وامنعها من جبابرة الأرض » .

ـ وفي هذا الدعاء ما يوضح الشق الثاني من استراتيجية عقبة ، واهدافه الانسانية النبيلة ، التي لا تخرج عن

نشر الاسلام وثقافته وثراته ، وتشجيع العلم والفكر والقائمين بشؤونهما ، اذ أراد عقبة من مدينته الجديدة فضلا عن دورها كمعسكر للمسلمين ، ومركز لا نطلاق الفاتحين ، أن تكون منارة للثقافة والمعرفة ، عامرة بالعلماء والصلحاء ، والمرابطين والمجاهدين .

وفعلا كانت نتائج قيامها عظيمة في المجالين العسكري والثقافي والديني .

ـ لقد أصبح المسلمون ينطلقون منها للاعمال الكشفية والحربية ، كذلك أقبل كثير من السكان على اعتناق الاسلام أثناء البناء ، وبعد اتمامه ، واختار الكثير منهم الاستقرار بجوار مدينة القيروان ، وارتفعت الروح المعنوية عند الجند ، وعند الجاليات الاسلامية القديمة بهذه الأفاق الجديدة التي تطورت اليها عملية فتح بلاد المغرب ، وزال عنها الخوف والاضطراب ، لأن القوة الجديدة أصبحت حقيقة شرعية ، يمثلها مصر اسلامي كبير ، ووال شرعي دائم ، ومسجد جامع ، وقوة اسلامية محلية متنامية ، وهذا ما أفصح عنه بعض الكتاب بقوله : (ودخل كثير من البربر في الاسلام واتسعت خطة المسلمين ، وقوى جنان من هناك من الجنود ، بمدينة ايقيروان ، وآمنوا وأطمأنوا على المقام فثبت الاسلام فيها » .

ـ والملفت للنظر حقا في حملة عقبة هذه ، انهالم تباشر اعمالا حربية الا في نطاق ضيق ، ومن أجل صرف السكان عن مضايقة المسلمين المنهمكين في عمليات البناء ، ولهذا تعتبر هذه الحملة عملا حضاريا تمدينيا الهدف منها ، هو الذي ظهر فعلا في بناء مدينة القيروان .

ـ ولأن عقبة كان جهده منصرفا الى هذه الناحية ؛ كوسيلة لتحقيق الهدف الاسمى ، وهو اتمام فتح بلاد المغرب ، وتمكين العرب منه ونشر الاسلام فيه ، لم تحدثه نفسه بتنظيم غارات ، لأخذ الغنائم والاسلاب والتحف والطرائف التي كانت محل رغبة المسؤولين سواء في مصر قاعدة الفتح ، أو في دمشق قاعدة الخلافة ، لذلك حيكت له الدسائس ولفقت له التهم ، وابعد عن الميدان الافريقي سريعا وكان ذلك سنة 55 هـ .

وبعزله عن الولاية تبدأ محنته .

10 ـ عقبة في محنته :

قبل معاوية بن أبي سفيان رأي والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري ، في عقبة وزاد فأطلق يده في بلاد المغرب ، فأصبحت من اختصاصه نيابة عن الخليفة يعين عليها من يشاء .

11 ـ عقبة ومسلمة بن مخلد :

واذاأردنا البحث عن أسباب هذا العزل المفاجئ الذي يعتبر نكرانا للجميل ، وغمطا لحق فاتح كبير يستحق الثناء والتكريم والترسيم ، فاننا نجد أن مسلمة بن مخلد ـ اعتمادا على ماضيه في خدمة بني أمية ، وبعد أن ولى مصر مع بلاد المغرب ، أراد أن يراقب النشاط فيها بنفسه ، عن طريق أحد صنائعه ، وعقبة ليس من بين هؤلاء ، بل انه يقف معه في الاقدمية والتاريخية ، بدون أية عقدة نقص .

ولقد اتيحت لمسلمة أكثر من فرصة ، لكي يتعرف على شخصية عقبة القوية الجريئة فطالما ضاق ذرعا باعتداده بنفسه ، يوم كان يلقي رعاية خاصة من عمرو بن العاص ، وعندما عين عقبة قائدا ؛ للفتح ، كان مسؤولا أمام الخليفة ، فلم يرجع الى مسلمة في أي شأن من الشؤون ، كما لم ينل منه أي مغنم جديد ، لذلك قوى الدافع الشخصي عند مسملة من وراء ابعاد عقبة عن ولاية بلاد المغرب .

وهذا الدافع الشخصي ، هو الذي جعله يعين أحد مواليه وأتباعه ، بدلا من عقبة ، وعندما قيل له : فهلا أبقيت عقبة فان له جزالة وفضلا .

رد قائلا : أبو المهاجر كواحد منا ، صبر علينا في غير ولاية ولا كبير نيل فنحن نحت أن تكافئه .

ومن غير المستبعد أن يكون مسلمة قد برر رأيه أمام الخليفة ، بضرورة سلوك سياسة جديدة في ميدان المغرب ، تقوم على السلم والتهدئة . وجذب السكان ، بدلا من سياسة الحرب ، والعنف والشدة ، التي اتسمت بها أعمال عقبة في هذا الميدان ، ويدل على هذا أن الوالي الجديد وهو دينار أبو المهاجر ـ مولى الأنصار ـ انتهج أثناء ولايته التي امتدت حوالي سبع سنوات (55 ـ 62 هـ) سياسة مغايرة لسياسة سلفه عقبة بن نافع الفهري ؛ وبالنسبة لمسيرة الفتح في بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) فالرجلان رائدان ، وعظيمان ويدين المغرب الأوسط بإسلامه في المرحلة الأولى ، الى جهود أبي المهاجر دينار ، وعقبة بن نافع الفهري ،

12 ـ عقبة وأبو المهاجر دينار :

ـ انه بالرغم من أهمية الاعمال السياسية والحربية التي انجزها أبو المهاجر أثناء ولايته ، فالنصوص اهملت التفاصيل عن نشاطه ، وضربت شبه حصار عليه ، بسبب ما فعله بعقبة ، وهو صحابي جليل ، ولأن أبا المهاجر أيضا

كان من طبقة الموالي وليس من بين العرب الصرحاء وللفهريين آل عقبة دور في هذا التعتيم ؟ اذ نبغ من بينهم قادة ، ورواة ومؤرخون كانت لهم مكانة أقوى من مكانة آل أبي المهاجر دينار.

لقد ارتكب أبو المهاجر دينار ، بعد وصوله مباشرة الى القيروان : هفوتين خطيرتين (أ) أساء الى عقبة وصفده بالحديد وسجنه ، (ب) وأمعن في الأساءة ، فهجر مدينة القيروان واخلاها من السكان ، وكره الاقامة فيها لسبب شخصي صرف ، ويبدو أن تصرفاته تجاه عقبة ، كانت تطبيقا لأوامر زود بها من طرف مولاه مسلمة بن مخلد ، والي مصر الذي كان يحقد على عقبة فعاليته ومكانته بين رجال الفتح ، ورغم أن مسلمة تنصل من هذه الجريمة الخطيرة ، تجاه صحابي قديم العهد بالفتح وبافريقية ، وبسكانها ، وألصقها بمولاه ، فان قرائن الأحوال واتجاهات السياسة في عهد بني أمية القائمة على سيادة العرب على غيرهم من المسلمين الموالي ، كانت : تمنع مولى كابي المهاجر من اهانة قائد عربي ان لم يكن مدفوعا ، ومامورا بذلك ومحميا من غضب الخليفة ، ويدل على هذا أن أخبار اهانة عقبة لما أوصلها الى الخليفة معاوية ، رجال يعرفون قدر عقبة ، ومكانته ، أمر الخليفة باطلاق سراحه ،

وتجهيزه سريعا الى دمشق وعندما أصبح عقبة في حضرة الخليفة بسط خدماته وبث شكواه في ألم وفي حسرة ؛ تقطع نياط القلب على نكران الجميل ، « فتحت البلاد وبنيت المنازل ، ومسجد الجماعة ، ودانت لي ، ثم ارسلت عبد الأنصاري فاساء عزلي » فما كان من معاوية كعادته في معرفته للذوي القدر قدرهم ، الا أن اعتذر لعقبة عما حصل له ، وأبان له شدة تحرجه ؟ بسبب مكانه مسلمة بن مخلد ، في الحزب الأموي ، وفي النضال لفائدة الثأر لعثمان وولاية بني أمية ، و ذا كان معاوية قد خصص لعقبة مكانا مناسبا ، لاقامته في دمشق ؛ فان عقبة لم يهدأ باله ولم يستقر قراره إلا عندما وعده الخليفة بأنه سيعمل على إنصافه وإرجاعه إلى ولاية المغرب ، عندما تصبح الظروف مواتية .

ـ والذي ينبغي تسجيله في هذه الفترة التي وجه أحداثها أبو المهاجر دينار جملة قضايا .

أ ـ لم يمارس هذا الوالي مهامه من مدينة عقبة بل أخلاها وحمل الناس على هجرها ، لكنه لم يجرؤ على تخريبها ـ لأنها منشأة عربية تاريخية ، تقوم فيها مؤسسات ادارية ودينية معتبرة في نظر السكان المحليين .

ب ـ ولإدراكه لأهمية الاستناد إلى قاعدة ارتكاز

ثابته في العمق ، تكون مرتبطة بشخصه ، اختار مكانا قريبا من القيروان ، وسط البربر ووضع بالتعاون معهم نواة معسكر جديد ، هو الذي ورد في النصوص بصيغة محلية « تاكيروان ـ ومعنى هذه المبادرة أن أبا المهاجر ، أراد من الآن أن يضع اللنة الأولى ، في أساس مساهمة السكان المحليين ، مع الفاتحين العرب ، في توسيع اطار عمليات الفتح ، حيث تصل الى المناطق التي ، لم تشملها حتى الآن ، وفي ذلك تقرب من نفوسهم ، وكسب لولائهم ، وتأليف لهم يسهل بدون شك مهمة أبي المهاجر فيما يعتزم القيام به ضد الروم البزنطيين وأحلافهم البرانس، والأفارقة المسيحيين .

ج ـ ومن هؤلاء الأحلاف قبيلة أوربة ـ وفروعها تنتشر من الأطلس الأوسط الى مشارف تلمسان وما وراءها في الزاب والأوراس ، وكانت زعامة البرانس ، والبتر ، في هذه المجالات معقودة لها ، وعنوان قوة هذه القبيلة ، ومظهر وحدتها ، في هذه الفترة ، هو أميرها المشهور بسعة علاقاته ويسمى كسيلة بن لمزم الأوربي ، الذي خلف شيخ القبيلة سكرديد بن زوفي بعد وفاته .

د ـ وشاءت الظروف أن يصطدم أبو المهاجر بأوربة وباحلافها ويزعيم الحلف القوى الأمير كسيلة ، ذلك أن

أبا المهاجر بعد أن أطمأن الى صداقة وحلف السكان المحليين ، بجوار تاكسيروان ـ خرج لارتياد ما بقي من مناطق غير مفتوحة في المغربين : الأوسط والأقصى ، حيث كان كسيلة وجماعته اذ هو من بربر المغرب الأقصى ، ويبدو أن معرفة كسيلة بما جريات الأحوال ، وسماعه بعودة النشاط الاسلامي ، وتصوره لما اعتزم المسلمون انجازه ، بعد فتح افريقية ـ حملاه على التحرك بسرعة لملاقاة أبي المهاجر قبل أن يتوغل في أرض المغرب الأقصى مركز ثقل أوربة ، وهكذا تم اللقاء بين القوتين والرجلين ؛ قرب تلمسان ، وأسفر عن هزيمة أوربة واحلافها ، وعن أسر أميرها كسيلة بن لمزم .

ـ هنا نقف لنحيي القائد المسلم أبا المهاجر دينار الذي لم يشأ أن يستغل نصره في تحقيق مكاسب مادية ، أو لاذلال أوربة وأميرها ، وانما اتجه وجهة حسنة ، فدعا الأمير الى الاسلام ، والى الحلف مع المسلمين ، فقبل كسيلة العرض ، وأسلم وحسن بعد ذلك اسلامه ، واقتدت به قبيلته أوربة واحلافها ، جريا على تقاليد تلك العصور.

ولقد غدا هذا التصرف من ابي المهاجر ، كسبا كبيرا، للحركة الاسلامية التي تدعمت في بلاد المغرب الأوسط

باسلام أوربة ، وزعمائها واحلافها من البرانس ، والبتر أيضا .

ـ ومن يومئذ نشأت على أرض المغرب الأوسط الصداقة الأبدية الخالدة بين أبي المهاجر وكسيلة ، فاصبحا متناصحين ، وحميمين كالشخص وظله ، لا يفترقان ، ونتج عن ذلك ميلاد الأخوة في الدين ، والرفقة في السلاح بين رواد الفتح العربي ، وسكان المغرب الأوسط وكل هذا كان ارهاصا بميلاد المجتمع المغرب أوسطي (الجزائري) الجديد في ظل الاسلام والدولة العربية .

وقد تم ذلك بفضل سماحة أبي المهاجر ، وبعد نظره وسعة افقه السياسي ، وبسبب انتمائه لطبقة الموالي .

ـ وسياسة التحالف مع السكان ضد الروم البزنطيين ، كانت نتيجتها طيبة جدا ، اذ مكنت أبا المهاجر :

أ ـ من ممارسة نشاطات كشفية ذات طابع عسكري ضد شبه جزيرة شريك (الوجه القبلي) وفحص قرطاجنة كبرى قواعد الروم (البحرية وعاصمة افريفية البزنطية ، وهذا لم يحصل قبل ذلك مع الذين سبقو أبا المهاجر في ميدان العمل في افريقية .

ب ـ وقد سهلت مهمة الفاتحين في مدن وقلاع المغرب الأوسط التي مروا بها أثناء عودتهم الى قاعدة

افريقية ، تلكيروان ، وهذا على خلاف ما حصل بعد ذلك ؛ مع عقبة ومرافقيه حيث غدربهم في الطريق .

ج ـ وشاء أبو المهاجر ـ قبل عودته الى تاكيروان ـ تخليد ذكرى الحلف الأخوي ، والتعاون المشترك الذي ولد في تلمسان مع أوربة وزعيمها ، فانهمك أعوانه ، وأحلافهم في حفر ينابيع كثيرة قرب تلمسان عرفت في النصوص اللاحقة بعيون أبي المهاجر ، وربما بقيت الى الآن تحتفظ بهذا الاسم التاريخي مع تحريف اقتضاه البعد الزمني .

ـ ان عيون أبي المهاجر في تلمسان ، وآبار حديج بالقرن ونبع الفرس بصحراء فزان ، وقاعدة القيروان ، ومسجدها الجامع ، ثم تاكيروان أبي المهاجر ، ومسجدها الجامع أيضا ، ومدافن رواد الفتح ومنها ضريح عقبة ورفاقه ، ومدينة تونس ، ودار صناعتها .

ـ ان هذه كلها تعتبر من الآثار الاسلامية الباقية من عصر الفتح ، من عصر الفروسية الاسلامية ، من عصر وحدة الارادة عند العرب المسلمين ، تدعونا الآن الى الاعتبار ، والى أحياء مااندثر من الصلات والقيم .

ـ لقد ظلت ذكرى أبي المهاجر حية في نفوس السكان المسلمين في المغربين الأدنى والأوسط ، وكان

يحييها : حكمته السياسية ومرونته ، ثم آثاره الباقية ، ودوره الايجابي في تثبيت سياستي الاستقرار ، والحلف . وتركيز الاسلام بين أقوى قبائل المغرب الأوسط والأقصى .

ـ وأخيرا كان لأبي المهاجر اتباع ، وأحفاد في افريقية ، حظوا بعناية فائقة من السكان ، وكان بعض هؤلاء الأحفاد على درجة كبيرة من الثقافة ، والوعي الديني والتاريخي خاصة بما جرى لأسلافهم أثناء حركة الفتح ، فمثلا ، عيسى بن محمد ، بن سليمان ، بن أبي المهاجر ألف كتابا نادرا عن فتح افريقية ، من باب تخليد ذكرى عمل جده الأعلى الفاتح العظيم أبي المهاجر دينار ثم جده الأدنى سليمان الذي راح ضحية وقوفه الى جانب الشرعية الخلافية ضد حركات الخوارج ، واسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر ، سهر أثناء ولايته في عصر متأخر عن الفتح ، على خدمة السكان المغاربة ، في النواحي المعنوية والروحية والثقافية ، فقام بحركة تبشير بينهم ، واستعان بمجموعة من العلماء لتنويرهم ، في شؤون الدين والدنيا ، لا غرابة اذ استجاب هؤلاء السكان لدعوته ، بعد أن فهموا نبل اغراضه ، فاسلم معظمهم ، ولهذا السبب نال عند المؤرخين لقب « أحسن والٍ وأحسن أمير » .

ونحن أن تساءلنا عن سر توفيق أبي المهاجر ، ونجاحاته الكبرى في وقت كانت فيه الأمبراطورية البزنطية : تعد

المشاريع الضخمة ، لارجاع ماضاع من قبضة ولاتها في قرطاجنة أكبر مركز للمقاومة ، وللتحدي ، ولحركة الاسترداد من المسلمين ؟ نجيب انها سياسة الحلف والتعاون مع السكان ، ضد كل تحرك معاد من جانب الروم ، أو من حلفائهم الافارقة ، فلو لم يفاجأ هذا الوالي بالعزل ، عن ميدان افريقية ، وبلاد المغرب ـ مثل سلفه عقبة بن نافع ، وبتأثير من شكاويه ودسائسه ، لكان في امكانه فيما يبدو واعتمادا على سياسة الحلف ، ان ينطلق بجموع العرب ، والمسلمين الجدد وراء تلمسان ، الى عمق المغرب الأقصى حتى طنجة على العدوة الدنيا ، حيث مركز ثقل أوربة واحلافها ، وكان يمكنه بقليل من الجهد ، أن يستميل السكان الى الاسلام ، أو الى سياسة الحلف ، ويريح الدولة العربية الاسلامية في عهد بني أمية من المجهودات التي بذلها خلفاء هذه الدولة ، ومن التضحيات التي تحملوها ، من جراء تقلب سياستهم ، وعدم وضوحها ، أو خضوعها للأهواء السياسة أو القبلية .

ـ والنظرة المنصفة لسياسة أبي المهاجر في بلاد المغرب تقود حتما الى الاعتراف الصريح ، بأهمية دوره في تقدم حركة الفتح بشقيها : العسكري والثقافي خاصة بين سكان المغرب الأوسط (الجزائر) الذين غدوا حلفاء يوثق

بهم ، كذلك فقد مهد بعمله الأرضية لتصفية كبرى قلاع الروم ، وهي قرطاجنة ، أي وضع أسس النصر النهائي للفاتحين في أرض المغرب ، وبذلك سهل مهمة الذين ترسموا خطاه ، في الاعتماد على الحلف مع السكان ، للعمل المشترك ، ضد العدو المشترك وهم (الروم) .

أما الذين انتهجوا سياسة تجاهل الحلف ، واصطنعوا الشدة والعنف ، بدافع الحماس الملتهب للاسلام ، فانهم كلفوا أنفسهم ، وكلفوا الخلافة مشقات وتضحيات ، لأنهم وجدوا أنفسهم أمام تجمعات البربر والروم وبرز ذلك بوضوح أثناء حملة عقبة الكبرى ، التي بدأت منذ 62هـ أي في عهد الخليفة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

13 ـ عقبة ويزيد بن معاوية :

عاد عقبة أخيرا الى القيروان واليا من طرف يزيد بن معاوية لأنه كان يعرف ماجرى له ، وكان يقدره ، ويعطف عليه ، وطالما دافع عنه في حضره والده معاوية دون جدوى ، لأن معاوية كان معذورا بينما ابنه يزيد لم يجد نفسه ملتزما تجاه مسلمة بن مخلد والى مصر والمغرب ، والمسؤول عن تصرفات أبي المهاجر ، مثلما كان أبوه ، وكان يزيد فضلا عن ذلك في وضع دقيق بسبب معارضة

أبناء الصحابة لخلافته ، لذلك عمل على التقرب من رجالات قريش ، وعلى ارضاء كبرائهم ، ليقوي بهم ، ويكونوا اعوانا له وبطانته ، ويبدو أن عقبة كان من بين هؤلاء الذين ساندوا يزيد لقاء اعادة اعتباره كرائد لفتح افريقية ، ومعنى كل ذلك أن نشاط عقبة في عاصمة الخلافة ، واتصالاته المتعددة ، لشرح قضية معاملته من طرف أبي المهاجر بقسوة ، وبامتهان ، دون مراعاة لسابقته ، ولخدمته ، ولمبادراته في سبيل مجد بني أمية ، قد أثمرت في نهاية الأمر.

14 ـ مسلمة بن مخلد يعتذر لعقبة :

ـ ولما كان عقبة منطويا على نية الانتقام والثأر لكرامته ، فقد بادر منذ تعيينه بالتوجه الى افريقية على رأس جيش كثيف وعندما مر بمصر اعتذر له واليها مسلمة بن مخلد الأنصاري وأقسم أمامه ، بأن أبا المهاجر خالف ما أوصاه به من حسن معاملته بسبب محبة السكان له .

15 ـ عقبة وعبد الله بن عمرو بن العاص أثناء مروره بمصر :

أما عبد الله بن عمرو بن العاص ـ قريب عقبة ، فقد قال له ، ما اقدمك يا عقبة ، فاني أراك تحب الامارة ؟

وأياك أن تكون لعنة ارامل أهل مصر ، فاني لم أزل أسمع انه سيخرج رجل من قريش ، في هذا الوجه (افريقية) فيهلك فيه .

فاكتفى عقبة في جوابه بقوله « أن أمير المؤمنين عزم على شيء ، ونفذه ـ ولا مناص من ذلك » .

16 ـ عقبة ينتقم من أبي المهاجر :

ومنذ أن وصل عقبة الى افريقية ـ بادر بالقبض على أبي المهاجر وصفده بالحديد ، وصادر أمواله وخرب مدينته تاكسيروان ، وهجّر السكان منها ، وأعاد بناء ما خرب من مباني القيروان ، وأضاف اليها مباني جديدة وعمرها بالسكان ، فاستعادت المدينة بهجتها ، ووجهها النضر ، وقيمتها كحاضرة لولاية افريقية الاسلامية .

17 ـ عقبة وكسيلة :

ولم يقتصر عقبة على أبي المهاجر وحده ، بل نال باذاه وعقوبته صديق أبي المهاجر ، وحليفه كسيلة الأوربي دون سبب واضح ، يبرر ذلك ما عدا صداقته لأبي المهاجر، وقد نسى عقبة في شدة غضبة على أبي المهاجر ، أن هذا الأمير لا علاقة له بالخلاف الشخصي بينه وبين أبي المهاجر ، وفضلا عن ذلك ، نسى عقبة أن هذا الأمير

حديث عهد بالاسلام وأنه من المؤلفة قلوبهم ، الذين عاملهم الرسول (ص) من قبل معاملة خاصة ، ليتعلقوا بالاسلام ، هكذا فعل الرسول (ص) مع أبي سفيان زعيم قريش ومع الأقرع بن حابس التميمي ومع زعيم كندة الخ.

ورغم أن أبا المهاجر نصح عقبة وذكره بكل ما تقدم ، وبأن الاسلام يتقدم في البلاد ، وان الاعتماد على كسيلة شيءٌ ضروري ، فانه حمل الأمر على أنه دفاع من صديق عن صديقه ، وتزكية له في ميدان المسؤولية .

ولم يأبه عقبة لخطورة موقفه تجاه أمير محلي جبار ، عزيز الجانب بين قومه وذويه ، فكان هذا الموقف بمثابة المحرك الأساسي للفتنة التي أودت بكثير من الأبرياء في تهودة .

18 ـ حملة عقبة الكبرى ـ القيروان ـ آسفى 63 هـ :

ـ وبسرعة فائقة ، وبدون إعداد مادى كاف ، ترك عقبة القيروان لنائبه زهير بن قيس البلوي تساعده حامية عسكرية ، وخرج يقود حملة كبرى طوف بها في أراضي المغرب الثلاثة : الأدنى ، والأوسط ، والأقصى مبتدأ من القيروان ، ومنتهيا بآسفى ماليان « الغيران يطوف » على ساحل المحيط الأطلسي للمغرب الأقصى .

ـ ولقد سبق لعقبة أن هيأ سكان القيروان بخطابه الذي يفيض بالحماس ، وبحرارة التدين ، كما هيأ ابناءه بأذن أوصاهم بالتمسك بهدي القرآن وبصحبة الأخيار المتقين المتواضعين لله ، وبالابتعاد عن المغرورين ، ثم ترك الاستدانة لما فيها من ذل ومهانة ـ هيأ الجميع نفسيا لقبول هذه المغامرة ، كأمر لا مفر منه ، ولا محيد عنه ، اذا أريد للاسلام النصر والظهور ، في كامل بلاد المغرب ، كما هيأهم أيضا لترقب كل الاحتمالات ، ومنها استشهاد هؤلاء المجاهدين في سبيل اعلاء كلمة الله ، وعدم عودتهم مرة أخرى الى أرض القيروان بيئة السلام العربي ، أنظر اليه وهو يقول : أمام الجميع « أني قد بعت نفسي الى الله ، فلا أزال أجاهد من كفر بالله وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا ، اليس هذا كلاما يفهم منه معنى التوديع كما تفهم منه معنى الوصية أيضا ؟ بلى والله ، انه الوداع ، انها الوصية ! !

19 ـ خط سير الحملة :

ـ وقد غادر عقبة مدينته وهي عامرة زاخرة ، محمية وتابع سيره في اقليم الهضاب ، مبتعدا عن السواحل ، وعن الدواخل أيضا ، وكانت محطته الأولى ، حصن باغاية (قرب خنشلة) عند اقدام جبال أوراس وكانت باغايه مركزا بيزينطيا حصينا تقيم فيه حامية كبيرة ـ فضرب عليها

حصارا بعد أن تحصت حاميتها داخلها ورفضت المواجهة الحربية .

ولمناعة أسوار الحصن ، وعدم توفر ادوات فك الحصار عند المسلمين غادروا الحصن دون التمكن منه ، الى اقليم الزاب ، وكان اقليما منيعا ، وعمرانه كثيف ، وامتداده الى مدينة المسيلة التي تقع بجوارها عاصمة الاقليم القديمة وهي أزبه (زابي حستنيان) تلك التي وردت أيضا باسم أربه وأدنه والرومانية ـ وعند ما سمع الروم ـ خبر الحملة اعتصموا بحصونهم بينما التجأ بعضهم الى مراكز جبلية ، انتظارا لتطورات الأحوال ، واذ كان وصول عقبة الى المكان قرب الليل ، فقد تحاشي الالتحام مع أية قوة ، وعسكر بقرب واد هناك ، وبات المسلمون في حراسة ، ومراقبة لتحركات الروم ، فاصبح الموضع يعرف بوادي سهر ؛ واحتفظ المكان بالتسمية حتى القرن الخامس الهجري (11م) وان هو الا وادي القصب وادي المسيلة الذي يقع عليه سد بهذا الاسم .

ـ وعندما لاح الصبح والتحم الفريقان ، بان على المسلمين الانهاك والضعف ، وتسرب اليأس الى نفوسهم ، بسبب شدة المقاومة وكثرة الروم ، غير أن صمود عقبة وثقته بنفسه . وبثه الحماس في نفوس المسلمين ، اعاد اليهم

ثقتهم بأنفسهم ، فصدقوا ، وتمكنوا بعزيمة قوية من الجاء الروم الى حصونهم منهزمين .

ـ في هذه المرة أيضا لم يرد عقبة أن يضيع وقته في حصار لا جدوى منه ، فواصل رحلته الى نواحي نهري شلف ومينه ، جيث يوجد حصن بيزنطي كبير ، تقيم فيه حامية رومية في المنطقة ، ذلك هو حصن تاهرت القديم ـ وفي هذا المكان اصطدم عقبة بتجمعات هائلة ، من الروم ومن البربر أيضا ، قاومت ، فكانت شديدة الوطأة على المسلمين المنهكين بطول السفر ، وبالسهر أيضا ، وعندما لاحت بوادر الضعف على المسلمين انبرى عقبة كعادته في مثل هذه الظروف ، فخطب فيهم مشجعا ، ومهونا وضاربا لهم الأمثلة بالصحابة الأولين ، الذين امتحنوا أكثر من مرة ، فثبتوا وبايعوا الرسول (ص) بيعة الرضوان على قتال المشركين في بعض هذه الأحداث الكبرى .

فارتاح رجال الحملة لمنطقه ، وارشاده : واعجبوا بقوة عزيمته ورباطة جأشه ، واستعدوا لخوض غمار معركة الشهادة لاعلاء كلمة الله ـ وبرغم كثرة أعدائهم ، وشدة تعبهم ، فان النصر حالفهم ضد رجال الحلف البيزنطي ـ البربري ، الذين لاذ كثير منهم بالفرار ، للتحصن بتاهرت وبغيرها من الحصون المجاورة .

20 ـ عقبة في المغرب الأقصى لأول مرة :

لم ير عقبة ضرورة لملاحقتهم ، وواصل سيره حتى فارق أرض المغرب الأوسط ، وتوغل في عمق أرض المغرب الأقصى ، وذلك لأول مرة ـ بحيث لم يسبقه أي فاتح في هذا الميدان ؛ وكانت طنجة أولى محطاته ـ وكان حاكمها القوطي الذي كان يعرف بالكونت جوليان ـ قد اسرع الى عقبة ولاطفه وهاداه بالأموال الكثيرة ؛ واظهر له الطاعة والصداقة ، فقبل منه عقبة ما عرض عليه وبالغ جوليان في التودد لعقبة ، فوضع أمامه خلاصة بتجاربه في المنطقة ؛ مع الروم ، ومع البربر ، في بلاد المغرب .

ثم مع القوط الغربيين في شبة جزيرة ايبريا ، وعندما فهم من عقبة رغبة في مواصلة السير عبر مضيق الزقاق (جبل طارق فيما بعد) الى بلاد الأندلس ، لنشر الاسلام في أروبا نصحه بالعدول عن هذه الفكرة لما فيها من مخاطر جمة ، وأبان له عن مناطق وعن جيوب في أرض المغرب الأقصى تعمرها قبائل بربرية وثنية صعبة المراس ، كما لاحظ له بان جيوب الروم مازالت منتشرة في كثير من القلاع والمراكز ، عبر المغربين الأوسط والأقصى ، وفي ذلك مخاطرة كبرى تواجه الذي يتركها دون مناجزة سريعة وحاسمة اذ قد تقطع عنه خط امداده ورجعته عندما يصبح

البحر فاصلا بينها وبينه ، لذلك توجه عقبة بناء على هذه المعبومات ، الى المغرب الأقصى وبدأ بمنطقة السوس الأدنى خلف طنجة وهي التي تعرف بتامسنا ، حيث مساكن قبائل مصمودة ثم افتتح مدينة وليلي الواقعة بازاء جبل زرهون (قصر فرعون) بالأطلس الأوسط ، وهذه المدينة كانت من أعمر وأكبر مدن المنطقة ، تستفيد من نهرين عظيمين في انحائهاهما : نهر سيو الذي ستبنى عليه فاس ، ونهر ورغة ، ومن وليلي واصل زحفه جنوبا الى وادي درعة ومنطقتها ـ وهناك في صحراء درعة وضع أساس مسجد ، ليكون منارة للاسلام ، في صحراء المغرب الأقصى ، وتابع السير حتى منطقة تافلالت حيث ستبنى فيما بعد حاضرة اسلامية هي سجلماسة ، ومن هذا المكان دار حول جبال (درن) الأطلس الأعلى وتوغل في مضارب قبائل صنهاجة الجنوب وهم أهل اللثام ، (المرابطون فيما بعد) فاطاعوه دون قتال ، ومن منطقة صنهاجة دخل مدينة اغمات ، حيث ستبنى بقربها مدينة مراكش في عهد المرابطين (القرن 5هـ 11 م) فاطاعه سكان هذه المنطقة بعد ممانعة واعتصام قصيرين ، ومن اغمات اتجه نحو السوس الأقصى الى وادي نفيس البلد الأنيس ، فحاصر بها مجموعة من الروم والبربر وأخضعهم ، ووضع أساس مسجد في هذه المنطقة ، ووسع نشاطه في منطقة السوس الأقصى بحيث

شمل عاصمة الأقليم وهي ايجلي التي وضع فيها أساس مسجد جديد أيضا ، وقد استجابت لدعوة الاسلام قبائل المنطقة لاسيما قبيلة جزولة التي ينتسب اليها مهدي المرابطين وهو عبد الله بن ياسين ومن ايجلي سار نحو ماسه ، ثم الى آسفى على ساحل المحيط (ماليان يغيران يطوف).

ـ وعندما وصل عقبة الى هذا المكان أدخل قوائم فرسه في البحر حتى وصل الماء الى تلابيبه ، ووقف برهة ثم قال : لأصحابه أرفعوا ايديكم ففعلوا فدعا :

« اللهم اني لم أخرج بطرا ولا اشرا ، وانك لتعلم انما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين : وهو أن تعبد، ولا يشرك بك شيئ ، اللهم انا معاندون لدين الكفر ، ومدافعون عن دين الاسلام فكن لنا ولا تكن علينا ياذا الجلال والاكرام » .

ـ وان اقحام عقبة لفرسه في الماء ليعني اصرارا على التمادي في حركة الجهاد لاعلاء كلمة الاسلام ، لو علم أن هناك اقواما وراءه ، كما يعني أن عقبة اعتبر نفسه قد انهى حركة فتح بلاد المغرب ، ووضع أسس إسلامه واستعرابه ، بالمساجد التي بثها هنا وهناك ، وبالقبائل التي كسبها للاسلام ، فلم يبق بعد كل هذا السفر الطويل الشاق الا طريق واحد هو : العودة الى جاضرة القيروان وقد تم

ذلك بعد غيبة أمتدت حوالي سنة كاملة قضاها عقبة في النشاط الكشفي والحربي ، وفي اقامة مؤسسات جديدة للاسلام ، وفي ضم تجمعات كبيرة من سكان المغرب الأقصى الى دين الاسلام .

21 ـ العودة وخيوط المؤامرة ومعركة تهودة 64هـ :

ـ اكتفى عقبة بالاعتذار لله عن عدم قدرته اقتحام هذا البحر الزاخر ، ولوى عنان فرسه وعاد ادراجه ، نحو هدفه البعيد مدينة القيروان ، وفي طريق العودة ، كسب بالدعوة الهادئة قبائل كثيرة الى الاسلام ، منها حاحة ، ورجراجة وصوده من قبائل المغرب الأقصى ، وعند وادي تنسيفت ترك بين مسلمي هذه الجهة مرابطا وداعية ، من خيار أصحابه هو شاكر ومهمته تعليم المسلمين الجدد أصول الاسلام ، وهذا المكان الذي أقام فيه هذا الداعية المسلم في كنف المسلمين اخوانه ، عرف فيما بعد باسمه فهو الى الآن سيدي شيكر وفي مضارب قبيلة دكالة بين وادي تنسيفت ووادي أم الربيع ، واجه عقبة محنة كبيرة تمثلت في مقاومة هذه القبيلة لدعوة الاسلام فكبدته خسارة كبيرة في الأرواح ، حتى عرف مكان هذا اللقاء ـ بمقبرة الشهداء .

انه الارهاص حقا بعصر الشهداء بعد ذلك لم يصادف أثناء مسيره ، ما يستحق أن يعتني به حتى وصل قرب مدينة طبنة وكانت حصنا روميا كبيرا (قرب بريكة الحالية) يدخل في اطار خط التحصينات الرومانية ، (الليمس)، ومن أكبر المدن في الناحية ، هنا أمر عقبة معظم رجاله بالاسراع في العودة الى القيروان ، ربما لأمر خاف منه على عاصمته الاسلامية ، خاصة وان الروم يعدون منذ وقت للانتقاص من أطراف المسلمين ويمدون الجسور من جديد للبربر ، من أجل التعاون ضد المسلمين في قاعدتهم الأفريقية .

ـ لعل عقبة أسقط من حسابه قضية مقاومة البربر، والروم في هذه الناحية ، من أقليم الزاب ، ثقة منه بأنه كسر مقاومتهم ، وانزل الرعب في نفوسهم ، أثناء مروره بحصونهم منذ سنة تقريبا .

ـ ولم يكن عقبة يدري أن خيوط المؤامرة بدأت تحاك له منذ ان فارق القيروان ، حيث تولى ابن الكاهنة (لعله من قبيلة جراوه البترية) ، مهمة السير وراءه ، لطمس معالم الاحساء والينابيع والأبار.

ثم ما سر هذه المقاومة العنيدة التي لقيهاعقبة من الروم في منطقة الزاب وعاصمتها المسيلة !؟

ـ أما المفاجأة المذهلة فهي مواجهة عقبة لمقاومة شديدة من الحلف الرومي ـ البربري في تاهرت .

ـ ان الروم كانوا يعدون للامر الخطير ، ويتصيدون الفرص للاضرار بعقبة ، عن طريق احياء الحلف من جديد مع البربر؟

ولابد أن يكونوا قد سمعوا اخبار عقبة ـ عن طريق عيونهم وعرفوا معاملته لابي المهاجر ، ولكسيلة الذي غضبت له قبيلته ، كما انهم عرفوا جيدا مدى تذمر بعض القبائل من سياسة العنف والشدة والامعان في التقتيل التي سلكها عقبة مع السكان ، حتى لا يفكروا في التمرد أو في الثورة ، اذا كان الروم على علم بما يجرى ، وينتظرون الفرصة المناسبة للعمل ؟

وها هي الفرصة قد حانت عندما بقى عقبة في قلة من فرسانه ، وعلى مسافة ثمانية أيام من مدينته العامرة ، القيروان ـ لانه كان بجوار بسكرة يريد أن يصفي نفود الروم من حصني تهودة وباديس» .

ـ لما رأى الروم قلة رجاله ، وبعده عن قاعدة امداداته وغفلته عما يدبرون له ، ثقة بالنفس ، اختمرت في عقولهم فكرة الاجهاز عليه ، وعلى من معه فقالو؟ «إن في قتال هذه الخيل قتال أهل الارض» أي أنهم كانوا واعين تماما

بأهمية نتائج ما سيفعلونه ، بالنسبة لتطورات الاحداث في منطقة افريقية كلها .

لذلك اظهروا تحديهم لقوة عقبة ، ورموه بالحجارة وشتموه ، وأغلقوا الحصون في وجهه ، كل ذلك وهو ثابت الجنان ، رابط الجأش يدعوهم بدعوة للاسلام .

ـ وعيون الروم وعملاؤهم هم الذين نبهوا الأمير الجريح الكرامة كسيلة بن لمزم ، الى الفرصة المتاحة ، كي يأخذ بثأره وينتقم لما أصابه ، على يدى عقبة ، وما على كسيلة في هذا الوقت إلاّ أن يعدّ ويستنفر قبائل الجهة ، فلم يتوان هذا الأمير ـ وانطلت عليه الخدعة ـ وحشد جمعا كبيرا من أوربة وحلفائها من الروم ، واشتبكوا مع فئة قليلة من المسلمين ، لا يتجاوز عددهم ثلاثمائة فارس من خيرة التابعين والصحابة وكان فيهم ابو المهاجر ايضا .

ـ عرف عقبة انه مقصود شخصيا ، من اطراف متعددة ، لها مصلحة في تصفية اتجاهاته ، لذلك أبي القائد العظيم ، والمحارب العريق الا أن يستجيب للتحدى ، ويشتبك مع قوة تفوقه عدة وعددا . وتقدم بخطى ثابتة ، الى المعركة ، بعد أن ترجل ، وصلى ركعتين ، كما ترجل معه اصحابه ، وسلوا سيوفهم ، وكسروا اغمادها ، لتبقى مسلولة في سبيل الله ، والى الأبد .

أراد القائد في هذه اللحظة الحر جة أن يطمئن على سلامة القيروان ، فأمر باطلاق سراح ابي المهاجر ، وفك قيده وأمره بالسير الى القيروان ، وعزم على اللقاء وحده ؛ ! ليظفر بالشهادة في سبيل الله ويبقى على هذا القائد الذي طالما نصحه بالتريث في أمر كسيلة ، وبالحذر منه ، ثم نصحه بمعاجلته عندما لاحت منه نذر الشر أخيرا لكن ابا المهاجر امتنع من مفارقة اخوانه ، في هذه الشدة العظمى ، أيْ أبي القائد الممحون بالأسر ، المصفد بالحديد ، لأن الأمر خطير ـ الا أن يثبت ويقاتل مثقلا بأغلاله ، الى جانب اخوانه ، لينال معهم شرف الاستشهاد فناله فعلا في تهودة ، مع عقبة ، وناله جل اخوانهم ، فلم ينج منهم الا من أسر ، اذ تدخل لفائدتهم ابن مصاد عامل قفصة المسلم ، وفداهم بأموال ، فاطلق كسيلة سراحهم وسيرهم الى القيروان .

ـ هذه معركة تهودة ، أو كارثة الحركة الاسلامية في بلاد المغرب (64هـ) فلنبحث عن اسبابها ونتائجها .

22 ـ أسباب الكارثـة :

يأتي في مقدمة الأسباب انتعاش معسكر الروم ، وعودتهم من جديد الى النشاط ضد المسلمين ، ظهر ذلك في باغايه ، وفي الزاب وفي تاهرت ، ووصل الى مرحلته الحاسمة في تهودة .

كذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن يواجه عقبة اثناء حملته مقاومة شرسة من الروم والبربر ، خاصة في تاهرت ، بل ان الروم احيوا سياسة الحلف مع السكان خاصة المسيحيين منهم ، لهذا نجد هؤلاء السكان ، النصارى يقاومون المسلمين في عهد أبي المهاجر دينار ، حتى نجح هذا الوالي في حذب أوربة وزعيمها كسيلة الى سياسة الحلف ، فلما حصلت التطورات التي ارجعت عقبة الى الميدان تراخت سياسة الحلف مع السكان ، خاصة بعد نكبة كسيلة ، تبعا للانتقام من حليفه وصديقه أبي المهاجر دينار ، من طرف عقبة . لقد قاوم نصارى اغمات أيضا جهود عقبة ، كما قاومها بربر هسكورة ، والمصامدة في تامسنا .

اذا اغتنم الروم فرصة هذا التراخي في سياسة التحالف مع السكان ، ومدوا جسور العلاقة ، واحيوا الصلات القديمة مع السكان لا سيما النصارى ، والافارقة الذين كانوا يرتبطون معهم بروابط ثقافية وروحية لم تنته بعد .

ـ ان هذا هو ما يفسر مساعدتهم لقبيلة كسيلة ، وما يفسر ايضا تدبير غارات على القيروان ، أثناء غياب عقبة في حملته الكبرى ، بقصد تهديد الوجود السياسي للمسلمين في أفريقية أيضا وكل هذا يوضح اصرارهم على المقاومة ضد

هذا الوجود ، اعتمادا على قواعدهم الحصينة ، وعلى تنسيقهم مع كل المتضررين ، من الوجود الاسلامي في المنطقة .

ـ ولقد أمتد نشاط الروم ليصل الى قمته بعد هذه الفترة في خادثة قتل زهير بن قيس البلوى ، نائب عقبة ـ قتلوه هذه المرة في درنة على السواحل الليبية ، اذاً كانت هناك خطة رومية نفذ جزؤها الأول في تهودة ، ضد عقبة ، ونفذ الجزء الثاني منها ضد نائبه في درنة ، وقد خيل للروم بعد هذا التوفيق ، انهم عائدون نهائيا ، لولا تطورات ادت الى مالم يكن في حسبانهم وقد حدثت هذه التطورات في عهد ابي الخلفاء الأمويين عبد الملك بن مروان ، الذي ازدان عهده ، وعهد واليه على افريقية حسان بن النعمان الغساني ، بتصفية قرطاجنة عاصمة الروم ، مع كثير من المدن والحصون التابعة لها ؛ فخسر الروم افريقية البزنطية التابعة الى الأبد ، بينما ربحها الأسلام متحررة مستقلة الى الأبد !

ـ كذلك ، فمن أسباب فشل المسلمين في تهودة ، عدم احتفاظ عقبة بكامل جيشه معه ، في منطقة طبنة ، وتسريحه له وبقاؤه في عدة مثين من الفرسان .

ـ ثم يلاحظ أيضا انه لم يستند في نشاطه منذ البداية ، الى ابقاء حاميات صغيرة ، في كل القلاع ، والمدن ، التي

أصبحت موالية للمسلمين ، حتى يستفيد منها ، فيما لوحدث طارىء غير محسوب ، كالذي حدث فعلا في تهودة .

ـ وقد لاحظنا كيف ان عقبة رسم امامه خطة للقيام بعمل ثورى شامل لم يسبقه اليه أحد من قبل ، ولن يدركه احد بعده من الفاتحين ، فالفاتحون بعده جميعهم مترسمون لخطاه متبعون لنهجه في هذه المنطقة أو تلك ـ داخل النطاق الجغرافي الممتد من القيروان الى آسفى على سواحل المحيط الاطلسي .

ـ ان هذا لشيء بديع ! ومفيد لو انه اعتمد على مجموعة من القواعد للطوارىء أو على سياسة التعاون مع السكان .

ان رغبة عقبة في احراز نصر سريع وشامل للاسلام ، في بلاد المغرب تحريرا له من التبعية ، دفعه الى استعمال الشدة والعنف مع السكان في أكثر من مكان ؛ فكثر الاعداء والمتربصون ، والموتورون ، وذوو المطامح الدنيئة الذين اتحدت ارادتهم اخيرا ، في انزال ضربة قاضية بالمسلمين ، أخذا بثأرهم ، وارضاء لاحقادهم الشخصية ، دون مراعاة المصلحة العليا للبلاد المغربية ولجموعاتها الاسلامية .

ـ واذا كان من سمات القائد الماهر اصطناع اللين والرفق احيانا حتى مع اعدائه ، كسبا لهم ، واذا كان من سمات القائد الماهر أن يعفو ويصفح عمن اخطأوا في حقه ،

ـ واذا كان من سمات القائد الماهر أن يختص بالعقوبة المذنبين ، شريطة أن يتحقق من ذنوبهم ، فان سيدى عقبة المجاهد والتابعى النموذجي ، لم يوفق في كل ذلك على حسب اجتهاده ، ولئن أخطأ في اجتهاده ، مثل كل البشر ، فأجره عند الله كبير ، لأنه أخلص لعقيدته ، ولميدئه المثالي ، وتشبع بحب الخير لسكان هذه المنطقة ، فأراد أن يحملهم على الرشد والهداية ، ولو عن طريق الاكراه ، مثلما يفعله الأب الرحيم مع أحب أولاده ، ومع اخص الناس به رحما.

فرحم الله عقبة الشهيد ! وابا الشهداء ! في مثواه الكريم فلكم اسيء الى قادة عظام مثله ، فحملتهم الاساءة كرها على ركوب مراكب صعبة ، لاتتفق مع نبل اخلاقهم وسماحة عقيدتهم الاسلامية .

وهنا لابد من الاشارة الى سوء تصرف بعض خلفاء بنى أميه تجاه بعض قادة الفتح ، في هذه البلاد ، فلقد اكتوى بنارهم بعد عقبة رغم جدارته وتاريخيته حسان ، وموسى بن نصير ، ولعل خوف عقبة من عزل مفاجيء عن ميدان الفتح في افريقية ، هو الذي حتم عليه في ولايته الثانية الاسراع بالعمل ، والقيام بهذه المغامرة ، التي انتهت بفشل ذريع ولكأن القائد الفذ كان متوقعا هذه النتيجة الوخيمة !

من يدرى فلعله كره الحياة ، والتعامل مع أناس لا يقدرون جهوده ، وجهود المخلصين للاسلام ، مثله ، فجعل حدا لحياته في ميدان الجهاد ، ميدان الشرف والاستشهاد ، ليكون ذلك ابلغ درسا واقوى ذكرى ، واشد بيانا لكل المجاهدين عبر كل العصور.

23 ـ نتائج معركة تهودة ـ ضريح عقبة أو مقبرة الشهداء :

ـ اسفرت مؤامرة تهودة عن عدة نتائج أولاها : ان المسلمين خسروا عدة مآت من خيرة المقاتلين والمجاهدين ، العارفين بالمنطقة وسكانها ، وفيهم من الصحابة ، وفيهم من طبقة التابعين ابناء الصحابة الكرام ، سقط كل هؤلاء شهداء الواجب والعقيدة ، في تهودة ، فاصبحت هذه القرية المتواضعة المغمورة بسبب هذا الحادث الخطير ، من أشهر البلدان في كامل بلاد المغرب العربي .

وأبتسم لها الحظ ، فغدت موئلا لهذه الثلة من القادة الاخيار ، لأن جميع الشهداء دفنوا في هذا المكان ، واهتم المسلمون بقبورهم ، فميزوها ، وجصصوها وبنوا بجوارها مسجدا جامعا ، ومجموعة مزارات ـ وبقيت محل عناية ورعاية ، ولاة افريقية المسلمين ، خاصة من اسرة القهريين احفاد الفاتح العظيم ، ولقد اصبحت القرية تعرف باسم سيدى عقبة ، عوضا عن اسمها التاريخي القديم (تهودة)

لذي اسقط من المصطلح الرسمي ، والشعبي من يومئذ ، والى أن تقوم الساعة ، كل ذلك تكريما لهذا القائد المجاهد، ولرفاقه الأبرار ، الذين أصبحوا شهداء الاسلام في أرض المغرب الأوسط ، لهم من الاعتبار والأجر ، مالشهداء الاسلام في غزوتي بدر واحد على عهد الرسول (ص) .

وبالتالي فمكان دفنهم هو الآخر ، يعتبر من أشرف الاماكن وأقدس البقاع ، لا في بلاد المغرب وحدها ، وانما في أغلب بقاع الاسلام ، وذلك للعدد الهائل من الصحابة الشهداء الذين ضمهم ، مما لم يتوفر نظيره في غيره من الأماكن الأخرى الا قليلا .

ـ وقد غدا ضريح عقبة ورفاقه مزارا مقدسا ، ومكانا للبركة يقصده المسلمون المغاربة في كل وقت ، ليستلهموا منه العبر والعظات فضلا عن صيرورته فيما بعد مكانا لقراءة القرآن وعلومه والسنة وعلومها ، والفقه وأصوله ، وعلم التوحيد ، وهو اليوم كالماضي معهد للثقافة الاسلامية ، ومدرسة لتكوين المتنورين في شؤون الدين ، ويفخر وطننا ـ وطن الاسلام ـ بأن تربته تضم هذا الجمع الكبير من الشهداء والمجاهدين من الصحابة والتابعين ، اسلاف المجاهدين من مواطنينا الذين قاوموا دخول فرنسا الى الجزائر ـ واستمروا يكافحون حتى اخرجوها بعد ثورة دامت سبع سنوات .

ـ ان وجود هؤلاء الصحابة والتابعين ببلادنا هو احد مفاخرها التي تذكرها بماضيها العريق في الاسلام ، وفي العروبة ، ويمجد الاسلام وعظمته ، وعظمة قادته المخلصين.

ـ والذي يلاحظ ان المسلمين في بلاد المغرب ، وفي مدينة القيروان خاصة ، من فرْط تعلقهم بعقبة واعتقادهم في كراماته كأحد أولياء الله الصالحين ، تحدوا المعز لدين الله الخليفة الفاطمي ، أن يحدث حدثا مّا في مسجد عقبة التاريخي ـ وكان هذا الخليفة قد عزم على تحريف قبلته واجراء تحوير فيه ـ وما أن بلغه قول العامة بأن الله سيحمي مسجد عقبة من كل جبار استجابة لدعاء صاحبه حتى أرسل خمسمائة رجل الى قرية سيدى عقبة وامرهم بنبش قبر الفاتح العظيم ، وباحراق رمته بالنار ، فلما دنوا من المقام الكريم ، وهموا بالعمل « هبت ريح عاصفة ولاحت بروق خاطفة ، وقعقعت رعود قاصفة كادت تهلكهم فانصرفوا ولم يعرضوا له ...»

ـ بقيت هذه الحادثة يتناقلها الرواة ، والقصاص ، والعامة حتى القرن 5هـ 11م) وما بعده .

24 ـ الجلاء الأول عن مدينة القيروان :

اما النتيجة الثانية التي تخلفت عن كارثة تهودة ، فهي ، تلك الآثار السيئة التي تركتها في نفوس الجاليات الاسلامية

في افريقية وبلاد المغرب ، ثم في نفوس رجال حامية القيروان ، ومن هؤلاء نائب عقبة ، زهير بن قيس البلوى .

لقد تبلبلت أفكار المسلمين في القيروان ، وهبطت الروح المعنوية عند الجند ، وسادهم غضب شديد ، من هول هذه الكارثة المفاجئة التي جعلتهم في خطر ، وصيرتهم بين فكي الرحى ، بين الروم في السواحل ، والبربر المحالفين لهم في الدواخل .

لقد قام زهير اثر سماع الخبر ، خطيبا في مسجد القيروان ، فأوضح للناس نتيجة الحملة ، وحثهم على الثبات ، وعلى البقاء في القيروان للقاء القوات المتحالفة من الروم والبرانس ، فإما الشهادة ، وهي شرف للأبطال والمجاهدين واما النصر الساحق الذي يرهب الاعداء ، ويمكن للاسلام ولمؤسساته ولرجالاته واتجاهاته من الاستمرار ، في هذه الديار، فخالفه حنش بن عبد الله الصنعاني ـ وكان من خبراء الحرب في افريقية ـ مع اغلبية الحاضرين ـ ورأوا ضرورة الانسحاب بسرعة ، الى اماكن آمنة ، وتنظيم الجلاء عن القيروان ، حتى تهدأ العاصفة الهوجاء ، وبدأ حنش فعلا في الاشراف على عملية ترحيل السكان ، واذ لم يبق مع زهير الا نفر يسير من رجال الحامية ، فانه انسحب هو الآخر مع المنسحبين ، واستقر الجميع في اقليم برقة ، يرقبون تطور الاوضاع في

المنطقة ، وينتظرون أوامر جديدة ، ومددا قويا ، من مصر ، أو من دمشق يواجهون به الموقف الخطير ، ويعيدون به الأوضاع الى حالتها الطبيعية السابقة .

وهكذا وقع الجلاء الأول عن قاعدة القيروان ، وأخليت الا من الشيوخ والمستضعفين والنساء ، والأطفال ، والراغبين في البقاء مهما كانت النتائج والتطورات ، فضاعت مؤقتا ـ الانتصارات المطردة ، وتركت الجماعات الاسلامية لمصيرها ، واصبحت مؤسسات المسلمين في افريقية تشكو من الضياع. ومن الفراغ السياسي الذي عاشته البلاد بعد هذا الانسحاب السريع .

ـ وقد شاءت الاقدار ان يستمر هذا الفراغ والانقطاع عدة سنين 64 ـ 69هـ بسبب تخبط الخلافة الاموية في مشاكل سياسية وقبلية إثر وفاة يزيد بن معاوية ، وتنازل ابنه معاوية (2) عن الخلافة ، لفائدة مروان بن الحكم الذي لم يستطع بدوره نجده مسلمي افريقية ، بتقديم العون لزهير وجماعته ، لأنه لم يستطع تحرير مصر قاعدة الفتح وطريقة من بين يد اتباع عبد الله بن الزبير ـ وهو أمر لم يتم إلا بعد وفاته سنة 65 هـ وولاية ابنه عبد الملك بن مروان 65 ـ 86 هـ .

25 ـ كسيلة في القيروان .

لم يبق امام الامير كسيلة ـ بعد تنفيذ المسلمين عمليات الجلاء عن القيروان ، ما يحول بينه وبين الدخول اليها ، بجموعه الكثيرة ، لملء الفراغ السياسي ، الذي اصبحت تعيشه افريقية بعد الانسحاب الاستراتيجي التكتيكي الذي اقتضته الضرورة .

ـ وفعلا زحف كسيلة على القيروان واحتلها ، وجلس في مكان عقبة في دار الامارة بالقيروان ، منها بدأ يمارس سلطاته الجديدة كأمير جديد على افريقية كلها ، ويتصرف من موقعه تصرف الحكام المستقلين المتزنين ، ولقد سهر على تدعيم سلطاته ونفوذه بين البربر ، والجماعات الاسلامية في افريقية ، عن طريق ارسال السرايا ، والبعوث للاعلام ، وجس النبض ، لا للحرب أوالانتقام ، اذ لم يشأ أن يبدو ـ بعد انتصاره ـ بمظهر الحاكم القاسي أو العنصرى ، واعتبر نفسه مسؤولا عن الجميع ، فبعث الطمأنينة في نفوس من بقي من المسلمين هنا وهناك ، ومنحهم كل الضمانات ، كما لم ير ضرورة لتتبع آثار المنسحبين منهم الى برقة ، وكان يمكنه لو اراد الاضرار بهم ، أن يعطل سيرهم ، ويلحق بجموعهم المفككة ، خسائر جسيمة، كما لم تبدر منه في هذا العهد الجديد ، اية باذرة تشعر بندمه ، عما وقع منه ، في حق عقبة

واصحابه ، كما لم تشر النصوص الى أية آراء أو أقوال جرت على لسانه ، وفيها ما يشعر بالعداء للعرب ، أو للاسلام ، رغم انه كان في ثورة غضب ومن حديثي العهد بالاسلام وهذا يبعث على الكثير من الدهشة .

ـ ولقد عرف للقيروان قيمتها السياسية ، وقدسيتها في نظر المسلمين ، فاحتفظ بها قاعدة للولاية ، وباشر منها الحكم في الاطراف ، كذلك لم يمس الآثار الاسلامية فيها ، وأهمها مسجد عقبة الجامع ، قبلة مسلمي افريقية كلهم ، وتمتع المسلمون في عهده بالسلام والطمانينة ، رغم ان الظروف كانت استثنائية كما أشرنا ، ورغم ما كان يربطه ، ويشده الى نصارى البربر ، والروم بسبب مساعدتهم له في ثورته ، ضد خصمه عقبة .

ـ ولقد استمر كسيلة على هذه السياسة الهادئة المتزنة طيلة الفترة التي انتصب فيها أميرا متغلبا في القيروان (64 ـ 69هـ) وهذا ما يستنتجه الباحث من واقع الاحداث ، رغم الحصار الذي ضرب على هذه الفترة ، ورغم مؤامرة الصمت عن هذه المرحلة التي نالت من جور المؤرخين ، فحسبوها نشازا ، لا تستحق التسجيل ، ولعينة ، لان مصدر الاحداث ، ومحركها رجل ثائر ، ودموي ، ولعين» ! !

بل ان بعض المؤرخين المغاربة والمشارقة على السواء يعتقدون بان محرك هذه الاحداث ، ليس ثائرا سياسيا فقط ، وانما هو رجل ارتد عن دين الاسلام ، بعد ان دان به لعدة سنين وهو رجل تعاون مع اعداء الاسلام ، لاجهاض حركة الاسلام في بلاده .

ولو سايرنا هذا المنطق ، لما كان في ذلك أي حرج ، لانه غير مستحيل وغير مستغرب منه ، ومن غيره من البشر المتقلبي الاهواء من حديثي العهد بالاسلام . ومن غير المتحصنين بالعصمة الألهية . .

ـ فالردة ، عن الاسلام ظهرت قبل وفاة الرسول (ص) وبعد وفاته ، بين قبائل عربية كثيرة ، دانت بالاسلام ، ومنها عنس ، وأسد ، وتميم وبنو حنيفة ، وكندة ، واصبح فيها متنبئون ، ومرتدون ، منهم الأسود العنسى وطليحة بن خويلد الأسدى ، وسجاح التميمية ، ومسيلمة الكذاب ، وغيرهم كثيرون .

ـ ان هؤلاء منعوا الزكاة ، حقا وقالوا كلاما فيه مس بالاسلام وثاروا لاجهاض دولة الاسلام ، في المدينة المنورة ، فهم مرتدون دينيا وثائرون سياسيا كذلك ، ولهذا لم يتهاون ابو بكر الصديق (ض) في قضيتهم ، ولم يقبل حلا وسطا في في امرهم .

ـ اما كسيلة ، فلم يثبت عنه انه قال كلاما فيه مس بالإسلام أو برجال الإسلام ، أو بنبـي الإسلام ، أو بعقبة وصحبه ، ولم يمنع اية شعيرة من شعائر الاسلام ، ولم يمس بالاذى بقايا المسلمين ، ولا آثارهم الدينية في القيروان لذلك ، وبكل تأكيد ، لم يكن من نمط هؤلاء المرتدين ولعل مما يدفع عنه تهمة الردة الدينية ، التي خلط المؤرخون بينها وبين الثورة السياسية ، حقيقة تضافرت أغلب مصادر الفتح الموثوق بدقتها على ترديدها ، وهي قولها : ان كسيلة اخلص للاسلام بعد أن هداه الله اليه ، على يدى صديقه ابي المهاجر ، ورضى بالامتحان وبالاهانة مع هاديه وصديقه ، ومن المؤكد انه فهم ، بأن موقف عقبة منه ، مرجعه الى اسباب شخصية أي الى صحبته لأبي المهاجر ، وارتباطه به ، وليس له دخل بالعقيدة الدينية ، أو بالتذمر لاهانة ابي المهاجر دينار ، ولعل مما يرجح ذلك هو رأى يقول بأن كسيلة ، انما ثار لهدف اساسي هو : تخليص صديقه المأسور ابي المهاجر دينار ، وهو بكل تأكيد ان صح موقف ينم عن النبل ، والوفاء تجاه صديق حميم ، ومثل هذه المواقف تحدث كثيرا في عالم البشر من ديانة واحدة او من عدة ديانات مختلفة .

وقد ينفي تهمة الردة أيضا موقف القائد البربرى بعد ذلك من المسلمين المعاهدين في القيروان ، فقد فضل حتى لا

يصيبهم أى أذى ، أن يترك القيروان ويلقى قوات الخلافة بعيدا عنها ، محافظة على عهوده معهم ، اذ لم يغب عنه انهم سيتحركون لمساعدة اخوانهم ، في قوات الانقاذ ، وعندئذ سيعاقبهم لمخالفتهم ، فاذا حصل ذلك منه يكون قد أساء الى ما اعترف لهم به من عهود وامان ، فيصبح ناكثا لعهوده .

واحتياط من هذا القبيل لا يدل الا على الحساسية الخاصة تجاه هذه المجموعات الاسلامية ، ثم على فضيلة الوفاء بالعهد التي يحث عليها دين الاسلام ، فالرجل اذا مازال مسلما ، ويبدو ان الذين تمسكوا بتهمة الردة في معناها الديني ، أو يريدون ان يتمسكوا بها استندوا الى ناحيتين : فاما الناحية الأولى فهي ان كسيلة تعاون مع الروم ونصارى البربر ، ضد المسلمين في تهودة .

اما الناحية الثانية فهي انه تآمر على عقبة ورفاقه وقتلهم ، في ظروف صعبة استنادا الى هذا التعاون مع قوم معادين للاسلام . ونحن وان كنا لا ننفي فكرة التعاون ، الذي ادى الى تصفية المسلمين ، في تهودة ، فاننا نلاحظ ان الأمرين معا ، رغم انهما جريمتان كبيرتان في حق الاسلام والمسلمين ، فانهما وبكل تأكيد ، لا يخرجان مرتكبهما عن حظيرة الاسلام ، اذا لم تبدر منه بوادر كانكار المعلوم ضرورة من

قواعد الاسلام إن هذا هو رأي المسلمين المعتدلين من اهل السنة ، ونحن منهم ، وعلى مذهبهم .

فصدر الاسلام مثلا عرف احداثا كبرى واجه فيها المسلمون بعضهم بعضا بالرأى ، وحتى في ساحات الحرب ، ولم يقل أحد بأن هذا الفريق أو ذاك أوكلا الفريقين المتقاتلين معا ، قد خرجوا عن الاسلام واصبحوا مرتدين .

فبعض هؤلاء المسلمين تجرؤوا فقتلوا خليفتهم عثمان بن عفان وهو يقرأ القرآن ، وداسوا على اضلاعه فكسروها ، وبعض هؤلاء المسلمين اشتبكوا في حرب الجمل ، وصفين ، فسقطت ضحايا من الجانبين ، وبعض هؤلاء المسلمين تجرأ فقتل آخر الخلفاء الراشدين علي بن ابي طالب ، لأن أجتهاده أداه الى ذلك ، فتولى آخرون قتل قاتله قصاصا ، كما جاء في القرآن .

وفي حوليات التاريخ الاسلامي كثير من هذا القبيل ، ومع ذلك لم يقدح احد في اسلام المتحاربين او المقاتلين أو يشكك في معتقداتهم الدينية .

فلماذا اذا نستند الى هذا وندعي ردة كسيلة ـ ان عقبة وكسيلة مسلمان اختلفا في الرأي ، وفي المزاج ، وتقابلا في ساحة الحرب فقتل أحدهما الآخر ، فأمرهما الى الله .

اما موضوع التعاون مع نصارى الروم والبربر ، اذا ثبتت صحته فانه هو الآخر خطيئة كبرى ، لكنه لا يؤثر في عقيدة صاحبه ، ففي مشرق الدولة الاسلامية ، وفي عهد خلفاء بني أمية ، وبسبب الأحداث الخطيرة التي مرت بها الأمة الاسلامية اثناء الفتنة الكبرى وبعدها واثناء الصراع على الخلافة بين الامويين والزبيريين ، نجد خلفاء بني أمية مثل معاوية بن ابي سفيان ، وعبد الملك بن مروان ، حمامة المسجد ، وهذا لقب عرف به) يهادنان الروم في منطقة الثغور (الحدود) وهم اعداء للاسلام ، ويدفعان اليهم الأموال ، كي لا يقلقوهما وهما منشغلان بالأحداث الداخلية ـ وتحالف بعد ذلك أمويو الأندلس ، مع الروم البزنطيين ، كي يدفعوا عنهم الاخطار من جهة العباسيين ، وحلفائهم الكارولنجيين جيران الأمويين وراء جبال البرانس ـ ولم يقل احد بان هؤلاء الخلفاء ـ هنا وهناك ـ الذين تعاونوا مع غير المسلمين ضد اخوانهم المسلمين هم حكام مرتدون .

ـ واذا كان لابد من خلاصة في هذه المسألة ، فهي أن التحيز لماضٍ منقطع ، وسحيق ، وغامض ، سواء أكان وثنيا او نصرانيا ، شيء مذموم وقادح في العقيدة ، بالنسبة لأي مسلم صحيح الاسلام في بلادنا بينما التعلق بماضينا المستمر في الاسلام ، وتقديسه ، وتعظيم رجاله واعطائهم مكانتهم ،

هو الواجب والمطلوب من كل مسلم ، في هذه البلاد ومن ثم فعقبة هو ذلك الماضى الذي نعتز به ونقدسه لأننا نحياه في حاضرنا ، وسنحياه ان شاء الله في مستقبلنا ـ والى ان تقوم الساعة ولن نكون أقل من اسلافنا الابرار الذين اقاموا لعقبة ضريحه ، وكرموه وأصبح عندهم محجا ومزارا ومحلا للبركة ـ)

26 ـ زهير والعودة لتأديب البرانس وكسيلة :

ـ لم يكن كسيلة ليهنأ علي كرسي الامارة في القيروان هذه الفترة لولم تكن احوال الامويين مضطربة ،

ولذلك عندما تمكن عبد الملك بن مروان من السيطرة على الأوضاع في العراق ، وفي الحجاز ، وظهرت بوادر النجاح ، والاستقرار النسبي ، في المشرق ، خضع لضغوط أهل الحل والعقد ، واستجاب لرغبة أكابر المسلمين في ضرورة التحرك من جديد ، في الميدان المغربي ، للثار ، لشهداء تهودة عقبة ورفاقه ، ولنجدة مسلمى افريقية وتخليصهم ، وتحرير قاعدة القيروان من حكم كسيلة وقبيلته ، ولتحطيم التحالف المصلحي الذي ربط بينه وبين الروم اعداء الاسلام ، ولان هذه الجهود من شأنها ان تعطي الجماعات الاسلامية الطمأنينة والاستقرار ، وتساعد على عودة النفوذ العربي الاسلامي من جديد .

وعندما استجاب عبد الملك اوضح امام هؤلاء الغيورين على حقوق الاسلام الثابتة في الأرض والعاطفين على السكان المسلمين في بلاد المغرب .

ان هذه المهمات الكبرى ، لاتناط عهدتها ، الا برجل فذ في مثل شخصية عقبة الشهيد ، حماسا وورعا ، وقوة ، وعقلا ، والتزاما ، وطلب منهم أن يشيروا عليه بمن يرونه اهلا لهذه المهمات ، فأشاروا عليه بتكليف زهير بن قيس البلوى ـ نائب عقبة وصفيه ـ الذي بقى حتى الآن مرابطا في برقة ، يرقب تطور الأحداث من قرب ، وبرر القوم اقتراحهم ، بمكانة زهير عند عقبة ، ثم بخبرته في ميادين الحرب المغربية ، وبمواقفة المبدئية الصامدة ، فوافق عبد الملك ، وأرسل الى برقة من يخبر زهيرا بنبأ تعيينه واليا على افريقية ، وبأمر الخليفة له ، بالتهيئو لاقتحام افريقية من جديد ، لانفاذ من بها من المسلمين ، وما بها من مؤسسات عربية اسلامية ، فرد زهير على الخليفة يعرفه بضيق حاله وقلة عدده ، وعدته ، بإزاء كثرة جموع كسيلة المتغلب على القيروان، فأسرع الخليفة ، وأمده بالخيل وبالرجال والاموال ، فاكتمل عنده بهذه القوة ، ستة الآف رجل : الفأن من مسلمي البربر، واربعة آلاف من العرب ، وبهذا العدد زحف نحو القيروان ، فلم يدخلها ، وأقام بظاهرها ، بقصد أن يستريح جنده ، ثم

واصل السير ، الى حيث يعسكر كسيلة ، بجموعه الكثيفة بوادي ممس ، وبجوار قرية بيزنطية قديمة تسمى سبيبة حتى الآن . والسبب في عدم تحصن كسيلة بالقيروان ، هو ان هذا الامير الأروبي ، لم يكن في عزلة عما يجرى في برقة ، وفي القسطاط ، ودمشق من المراسلات واعداد للثأر ، وللعودة من جديد ، الى القيروان ، وعندما سمع نبأ الزحف العربي من برقة ، سخر منه ، وتظاهر بعدم الاكثرات ، ثقة بقوته ، وبأحلافه من البرانس ، والروم ، الذين يتجاوزون في عددهم أضعاف من هم في حوزة زهير بن قيس البلوى .

ولكن مع ذلك بني استراتيجيته عند اللقاء ، على اساسين : أ ـ اخلاء المدينة ـ ب ـ واختيار مكان يتلاءم مع المعركة الفاصلة مع زهير ، من حيث وفرة المياه ، والاستناد اما الى الجبال ، أو القرب من الصحراء ، وعلل خروجه من القيروان ، بخوفه من وثوب الجماعات الاسلامية في المدينة عليه ، وعلى جماعته تعزيز الجانب اخوانهم العائدين ، كما برّر اختياره لمكان استراتيجي ، قريب من الجبال ، أوص الصحراء ، بالضرورة الحربية ، قائلا :

اذا انتصرنا على زهير وجماعته ، اقتفينا آثارهم الى طرابلس ، لنقطع آخر أمل لهم في العودة ، فيخلص لنا المغرب الى الأبد ، فاذا دارت علينا الدائرة ـ فزعنا الى الجبال

أوالى الصحراء ، نحتمي بهما ونؤمن انفسنا من قبضة المسلمين وانتقامهم ـ .

وعلى وادي ممس التقى الجمعان في ساحة القتال ، فاشتد اوراه واشتعلت ناره ، حتى أيس الناس من الحياة ، لقوة النزال وسقوط الضحايا من الجانبين ـ وأبي الله الا يتم نوره ، فقتل كسيلة وكثير من مساعديه ورجاله ، وانهزمت جموع الاحلاف ، وخارت قواهم ، فاطلقوا ارجلهم وأعنة خيولهم للى الريح ، وفروا وسيوف المسلمين تنزل على هاماتهم صواعق وسهامهم تنفذ فيهم خوارق ، وتتبعوهم قتلا واسرا حتى مشارف نهر ملاّق بجوار مدينة شقبنارية = الكاف = التونسية .

هكذا انتهت المعركة الحاسمة بين زهير ، وكسيلة في ممس سنة 69 هـ ، وهكذا ثأر المسلمون لشهداء تهودة ، وهكذا انحلت اواصر الحلف بين البرانس ، والروم ، فانثال جمعهم بعد هذه الواقعة ، واعتصموا بالقلاع ، والحصون .

ـ اما زهير ، فقد عاد الى القيروان ، ودخلها بعد غيبة امتدت خمس سنوات ، فأمن سكانها من جو الخوف ، وبدأ يصلح ما فسد من احوالها ، ورتب لأمن سكانها حامية صغيرة ، وبعد فترة استراحة فارقها في طريقه الى المشرق عبر

برقة ، اعتقادا منه ان مهمته هي تأديب كسيلة والثار لعقبة ؛ وقد انجز ذلك ، ثم ان الخليفة لم يكلفه من جديد ، بشيء آخر ، كما لم يامره بترك من ينوب عنه في القيروان ، لذلك تركها دون وال يمثل الخلافة ، وهنا نقف لنتساءل عن سرعة انسحاب زهير ... ؟

والذي يتبادر الى الذهن اضافة الى ما سبق ذكره ، هو ان زهيرا فضل الابتعاد عن جو العداء والتحفز الذي وجد بعد معركة ممس ، حتى يرجع الوضع الى الهدؤ تدريجيا .

ـ واذا كان لابد من جهد للاستمرار ، فليكن ذلك على يد وجه جديد .

وزهير على حق ، وهذا فضلا عن كونه عاش ظروفا صعبة ، كنائب لعقبة في القيروان ، وتحمل صدمة استشهاده في تهودة ، واراد الصمود للثأر ، فلم يسعفه اعوانه ، فكانت المعاناة الجسمية والنفسية وطول الانتظار في برقة .

ـ وها هو قد عاد ، ووفي بعهده ، لرفيق سلاحه ، فمن حقه أن يبتعد عن هذه البلاد التي عاش فيها محنا متواصلة.

ـ وأبي الله الا أن يلقى هذا القائد الفذ مصيرا محزنا كألذى لقيه عقبة في تهودة ، وانما كان المصير المحزن هذه المرة في درته ـ ببرقة ـ وعلى أيدى الروم الحاقدين . ـ

ـ وقصة ذلك أن الروم يعتقدون دوما انهم اصحاب حق وأهل قضية في بلاد المغرب ، وان من واجبهم الدفاع عن قضيتهم ، في الاوقات المناسبة ، وبالطرق المختلفة ، وقد رأينا شيئا عن تحركاتهم تبعا لهذا المنطق ، إما مستقلين بأمر المقاومة ، أو متحالفين مع السكان المتأثرين بحضارتهم ـ

ويبقى أن نعرف حلقة أخرى في سلسلة تحركاتهم ، وهذه المرة انطلقت التحركات البيزانطية ضد ساحل برقة ـ اعتمادا على الروم في صقلية ، وعلى عنصر الافارقة في برقة ، مسيحيون ـ وتمثل التحرك في إغارة ضد مدينة درنة الساحلية اثناء غيبة زهير في افريقية ، وثم ذلك قبل عودته الى برقة بيسير ، وبما ان الروم توغلوا ، وسلبوا ، ونهبوا ، وأخذوا كثيرا من المسلمين أسرى فان زهيرا بمجرد وصوله وسماعه بخبر الغارة وبما نال المسلمين من اضرار ، خف للحاق بالروم على الساحل وذلك لمراقبة الوضع ، ولتخليص أسرى المسلمين، وكان في معينة نفر يسير من الجند ، فلما اشرف على الساحل ، ورأى كثرة الروم ، تريث في الأمر ، ليلحق به كامل الجيش ، فاندفع بعض الجند المرافقين له ، يحثونه على الالتحام مع الروم ويعبرونه بالجبن فلم يجد مفرا من الانجراف في تيار القتال ، ضد قوة تفوقه عدة وعددا ، قدرات الدائرة عليه وعلى من معه ، في درنة ، وآلت اسلحتهم وأمتعتهم وخيولهم

غنيمة للروم الذين أبحروا بعد هذا النصر اليسير ، الى جزيرة صقلية ، ودفن القتلى حيث ماتوا بساحل درنة ، واصبح مكانهم يعرف حتى القرن الثالث للهجرة (9م) بقبور الشهداء.

وهكذا ربح الروم معركة ضد المسلمين في درنة (69 ـ 70هـ) وقتلوا زهيرا ورفاقه واقتصوا لأنفسهم ، ولحلفائهم ، برانس كسيلة من نائب عقبة .

فاضحت المصيبة في زهير ، ورفاقه ، مثل مصيبة المسلمين من قبل في عقبة ورفاقه شهداء تهودة .

وعندما سمع عبد الملك ما وقع للمسلمين من طرف الروم تأثر تأثرا عميقا لهذه النهاية المحزنة التي تشبه نهاية عقبة ورفاقه وظهر له شدة التنسيق بين الروم ، وبعض عناصر المقاومة المحلية من البرانس والبتر ، وعندما تداول في الأمر مع كبار اعوانه الحوا على التحرك السريع ، لحماية الحقوق الثابتة للعرب المسلمين في بلاد المغرب ، ولتأديب الروم والمتعاونين معهم ، وقطع أخر أمل لهم في النجاح ، وفي البقاء ، فأجابهم .. لا ارى احدا كفؤا لافريقية يسد ثغرها ، ويصلح امرها ، ويصبغها بصبغتي الاسلام والعروبة ، ابدا ، كحسان بن النعمان الغساني فكان دور حسان قاهر الروم ، وفاتح بلاد المغرب ، ومهندس دار صناعة تونس البحرية ، منذ سنة 74هـ.

27 ـ تراث عقبة :

يعتبر عقبة بن نافع تراثا مشتركا لبلدان المغرب الاسلامي، فخدماته غطت كل هذه البلدان بدون فرق ، وآثاره ، وثراته ، موزع ، على كامل هذه البلدان ، وآله واقر باؤه من فهر ، وقيس ، وقريش عامة يوجدون في اكثر من بلاد .

ـ فهو أول من ارتاد صحراء ليبيا ، واقام سنوات طويلة في برقة ، وهو أول من وضع اساس مدينة عربية اسلامية في تونس ، وهي القيروان واسس مسجدا جامعا فيها وهو مسجد عقبة ، وهو أول من فتح أرض المغرب الأقصى ، ووقف على مشارف بلاد الاندلس ، اما ضريحه حيث يستريح جثمانه فهو في أرض المغرب الأوسط .

ولهذه الخصال تعلق به الجميع ، واحيا ذكره الجميع ، وتأمل أن يكرم الرجل الذي خدمنا طويلا في ثقافتنا وفي ديننا بتسمية احدى المؤسسات الثقافية الكبرى باسمه ، ولا يأس أن تكون الجامعة الاسلامية في قسنطينة ، فتصبح جامعة عقبة الاسلامية ، والرجل أول من أدرك أهمية الثقافة ودورها والدين وسلطانه ، فاذا تم هذا تكون قد ربطنا الجسور بين مجاهدين عربين قرشيين عظيمين ، في تاريخ هذه البلاد ، عقبة بالجامعة .

والأمير عبد القادر بن محي الدين الهاشمي القرشي ، بالمسجد الجامع او العكس .

ولا يأس أيضا ان يطلق اسم هذا القائد الفذ على احدى قواعدنا العسكرية ، اعترافا بقدراته العسكرية ، وتغذية للحماس والذاكرة ، ولن نرضى أن نكون أقل من جيراننا في هذه الناحية التي ترتبط بتاريخنا العربي الاسلامي ، المجيد.

28 ـ القصص الشعبي ـ عقبة وكراماته :

بالنسبة للعامة ، وأهل الدين والصلاح والتقوى، يعتبر عقبة الصحابي الجليل ، وليا من أولياء الله ، خصه الله بكرامات وخوارق مثل غيره من الأولياء ـ والكرامة للولي ، بمثابة المعجزة للنبي ، وهي ميزة يخص بها الله أخلص عباده المتقين الاطهار ، فيستجيب لهم اذا دعوا ، ويخلصهم من المحن اذا استغاثوا ، ويطوع لهم بعض خلقه ، ويجرى على ألسنتهم من الكلام ما يصبح حقيقة واقعة .

وتاريخ عقبة الشعبي ثرى جدا فأخبار كراماته رواها الرواة وتناقلوها وحفظتها ذاكرة العامة ، وتضمنتها بعض مصادر التاريخ .

أ ـ من ذلك ان عقبة وهو راجع من جنوب فزان في عمق الصحراء وقد اصابه ورفاقه عطش شديد وكادوا يهلكون

«صلى ركعتين ودعا الله فجعل فرسه يبحث برجليه في الأرض، حتى كشف عن صفاة ، فانفجر منها الماء ، فجعل الفرس يمص ذلك الماء ، فابصره عقبة ، فنادى في الناس ان احتفروا ، فحفروا سبعين حسيا فشربوا واستقوا فسمى لذلك ماء الفرس» تذكيرا بهذه الكرامة العظيمة ، ومثل ذلك يروي بصدد تحديد اتجاه القبلة وموضوع المحراب في مسجده بالقيروان ، اذ بعد حيرة وجدل أكرم الله عقبة فألهم مكان المحراب عن طريق الرؤيا المنامية ، ! اذ قد وعى بأنه سوف يسمع غدا التكبير عند المكان الصحيح للقبلة ، فلما سمعه ركز رمحه في المكان وقال هذا محرابكم فزال الغم ، وانجلت الحيرة عن اصحابه وباشر وايثاء المحراب .

ب ـ تذكر النصوص أيضا أحساء عقبة بن نافع القرشي في الغرب الجزائري ـ وبصدد بناء القيروان وكان موضعها أجمة كثيرة الشجر والقطف كثيرة الوحوش والسباع والحيات قبل النزول لمباشرة أعمال التنظيف والبناء ، بأعلى صوته ثلاثا :

«يا أهل الوادي ـ إنا اصحاب رسول الله ـ ارتحلوا ـ رحمكم الله ـ فانا نازلون ، ومن وجدناه بعد ثلاث قتلناه

فجعلت الحيات تنساب والعقارب وغيرها مما يعرف من الدواب ، تخرج ذاهبة ، وهم قيام ينظرون اليها من حيث أصبحوا حتى أوجعتهم الشمس ، وحتى لم يروا منها شيئا ، فنزلوا الوادى عند ذلك »

ج ـ وبصدد عزل عقبة والأساءة اليه ، من طرف ابي المهاجر ، تحفظ النصوص كرامة لعقبة ، اذ عندما نزل بقصر الماء بجوار القيروان ، وصلى ، ثم دعا بقوله : اللهم لا تمتني حتى تمكنني من أبي المهاجر دينار بن ام دينار وبلغ ذلك ابا المهاجر لم يزل خائفا منذ بلغته دعوته ، وقد استجاب الله له ، فمكنه من غريمه قبل استشهاده .

د ـ وقد اشرنا من قبل الى كراماته عندما عزم المعز لدين الله الفاطمي على تحريف قبلة مسجده بالقيروان ، ونبش قبره في الزاب ، حيث لم يتمكن رجال المعز من تنفيذ الامر بسبب الرعود والصواعق والعواصف كل ذلك ببركة دعاء عقبة لمدينته أن يحميها الله من الجبابرة ، وقد استجاب الله له ؛ وأصبح من القابه . عقبة المستجاب .

هـ ـ ومن الأمثلة على استجابة الله لدعائه ما ذكر من انه كان يأكل الطعام مع جماعة في مصر ، اثناء عودته مرة ثانية إلى القيروان ، فضربت حداة على الطعام الذي كان

بين ايد يهم واخذت منه شيئا فقال عقبة «اللهم دُقّ عنقها ، فما لبثوا ان اقبلت الحداة منقضة حتى ضربت بنفسها الارض فاندق عنقها ، فاسترجع احد الحاضرين «أي قال : أنا لله وأنا اليه راجعون» ، فسمعه عقبة يسترجع فقال ما بالك يا ابا عبد الله ؟ فقال له بلغني ان نفرا من قريش يخرجون الى هذا الموضع فيستشهدون جميعا ، فقال عقبة اللهم وأنا منهم » فكانت بعد ذلك حملته الكبرى التي انتهت باستشهاده في تهودة ، رحمه الله فكم أسدى الى وطننا من خدمات جليلة ! !

و ــ ويؤثر عنه أنه عندما أقحم فرسه في ماء المحيط نادى بأعلى صوته وهو يشير بسوطه «السلام عليكم ورحمة الله ! ! فقال له بعض اصحابه « على من تسلم ياولى الله؟ فقال لهم على قوم يونس ، وهم من وراء هذا البحر ولولاه لوقفت بكم عليهم» ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال :

«اللهم اشهد اني قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك» .

خطبه ــ

ز ــ ومما له صلة بتراث عقبة ، وأفكاره ، ومنهجه في الحياة الدينية والعملية أقوال قالها بمناسبة البدء في بناء القيروان ، ثم بعد الانتهاء من البنيان وقد اشرنا اليها سابقا

ويضاف اليها نماذج من خطبه وعظاته ووصاياه ، وأشهرها خطبته في أهل القيروان أو وصيته لابنائه ، «عياض وأبي عبيدة ، وعثمان ، وموسى» قبل مغادرته المدينة الى اعمال الفتح ، اثناء حملته الكبرى .

ح ـ وصيته لابنائه :

وفيها يقول « اني بعت نفسي من الله وما أدرى ما يأتي علي في سفرى ، يابني اني أوصيكم بثلاث خصال ، فاحفظوها ولا تضيعوها أياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر ، وتتركوا القرآن ، فان القرآن دليل على الله عز وجل ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدى به اللبيب ، ويدلكم على مكارم الاخلاق ، ، ثم انتهوا عما وراءه ، وأوصيكم أن لا تداينوا ولو لبستم العباءة ، فان الدين ذل بالنهار وهم بالليل ، فدعوه تسلم لكم افكاركم واعراضكم ، وتبق لكم الحرمة في الناس ، ما بقيتم ، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين ، فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم ، وبين الله تعالى ولا تأخذوا دينكم الا من أهل الورع والاحتياط ، فهو أسلم لكم ، ومن احتاط سلم ، ونجا ، فيمن نجا ، ثم قال عليكم سلام الله ، واراكم لا تروني بعد يومكم هذا ثم قال :

«اللهم تقبل نفسي في رضاك وأجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك» .

ط ـ خطبة عقبة بجوار تاهرت .

ومن خطبه الحماسية خطبة قالها بجوار تاهرت عندما تحرج موقف المسلمين ، بسبب قوة الحلف الرومي البربرى ، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال :

«أيها الناس أن اشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم ، وانزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله (ص) بيعة الرضوان، على من كفر بالله ، الى يوم القيامة ، وهم اشرافكم والسابقون منكم ، الى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة ، وانتم اليوم في دار غربة وانما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر اليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد الا طلبا لرضاه ، واعزازا لدينه ، فابشروا ، فكلما كثر العدو كان اخزى لهم ، واذل ان شاء الله تعالى ، وربكم عز وجل ، لا يسلمكم ، فالقوهم بقلوب صادقة فان الله ـ عز وجل ـ جعلكم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه ، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين» .

29 ـ عناصر قريش وفهر في الزاب وتهودة :

ـ تميزت القيروان بأهم احيائها ، وهو الذي كان يسكنه الفهريون آل عقبة بن نافع ، الى جانب احيائها الاخرى التي سكنتها بعض عشائر من قريش وغيرهم ، ولم يبق تواجد العنصر الفهرى القرشي ميزة للقيروان وحدها ، بل توزع

هؤلاء على عدة جهات ومدن من أفريقية ومنطقة الزاب في المغرب الأوسط وفاس في المغرب الأقصى حتى ان بعض الجغرافيين والرحالة من عصور متأخرة نسبيا لاحظوا كثافة هذا العنصر ، في مدن الزاب مثل بسكرة ، وطولقة وتهودة وفاس .

واذا كان ابناء الشهيد عقبة ، قد تركهم ابوهم في القيروان في بداية انطلاقه على رأس الحملة الكبرى ، فان وفاته بعد ذلك خلقت وضعا جديدا ، اضطر بعضهم الى اختيار جوار ابيهم والاستقرار في تهودة ، ثم لحق بهم غيرهم من الاقرباء والموالى والاتباع ، ومحبي سيرة عقبة ونهجه في نشر الاسلام ، بحيث كثر عنصر قريش في تهودة التي أصبحت مركز جذب لهم ، ولغيرهم من عرب الشمال المضربة .

ويقدر ما اضر موت عقبة بسير العمل العسكرى ، بقدر ما أفاد سير حركة الانبهار بالاسلام ، وبسيرة دعاته ، وحماته ، الذين لا يبالون بأية أخطار ، في سبيل انجاحه ومد ظلاله .

30 ـ وجاهة ابناء عقبة في افريقية والزاب .

وقد انعكس هذا التعلق الشديد بعقبة ، على ابنائه وأحفاده من بعده ، فاصبحت لهم مكانة مرموقة ، ووجاهة بين السكان ، في سائر افريقية وبلاد المغرب ، وذلك بسبب

دور عقبة ، الرائد ، ثم بسبب انتمائهم الى قريش والى فهر منها بنوع خاص .

فالتف حولهم جماهير السكان أكثر من التفافهم حول ولاة الخلافة الشرعيين ، أمويين أو عباسيين ، فظهرت قيمتهم وازداد مجدهم ، وعلا شأنهم وتقربوا هم بدورهم من الناس ، واختلطوا بهم ، وتكونت ذكريات مشتركة ، وآمال محلية ، في أفراد هذا البيت العربي القرشي الشريف، العريق في الجهاد ، والاستشهاد من أجل مجد الاسلام .

ـ وهؤلاء ابناء عقبة رغم ما حل بهم من مصائب فانهم لم يفارقوا افريقية وبلاد المغرب ، ولطول العهد وأقبال الناس عليهم واقبالهم على الناس أصبحوا بلديين أو مغاربة أهلين ، لا تربطهم بالمشرق الا ذكريات قديمة تعود الى عصر الآباء والاجداد ، وهذا بخلاف بلاد المغرب فهي حاضر ومستقبل.

31 ـ ابناء عقبة وقادة فتح أفريقية وولاتها .

ـ ولهذه المكانة ـ كانوا حلقةربط بين السكان وبين ولاة الخلافة وقدموا لهؤلاء مساعدات جمة مكنتهم من تثبيت أقدام العرب في بلاد المغرب ونشر الاسلام فيها .

فساندوا جهود حسان بن النعمان ، ضد الروم في قرطاجنة وضد بُتر جراوة وزعيمتهم الكاهنة في الأوراس ،

كما كانوا الى جانب موسى بن نصير في نشاطه العسكرى ؛ ضد مضارب كتامة وصنهاجة في المغرب الأوسط ، وضد أوربة في منطقة وليلى بالمغرب الأقصى ، وقد أتيحت لهم الفرصة فشفوا غيظهم للمرة الثانية من بقايا أوربة ، في مدينة سجوما (بجوار موضع فاس) ـ لأن أوربة هم الذين قتلوا اباهم في تهودة ـ كما عبر بعضهم البحر الى الأندلس لفتحها مع موسى بن نصير وأقصد حبيبا بن أبي عبيدة حفيد عقبة ، وعندما تذمر العرب في الأندلس من سياسة عبد العزيز بن موسى بن نصير ـ إثر رحيل ابيه الى المشرق أغروا به أظهر زعماء العرب ، في ذلك الوقت ، فكان حفيد عقبة : حبيبا بن أبي عبيده بن عقبة بن نافع الفهرى فقتله ، وأراح منه أهل الأندلس .

32 ـ آل عقبة وفتن افريقية .

ـ ويبدو ان دورهم السياسي ، الى جانب السكان استمر بعد ذلك في عهد الوالي يزيد بن أبي مسلم الذي اطاحت به مؤامرة دبرها له السكان ، بسبب شدته وقسوته وسؤتدبيره ، مع المسلمين في بلاد افريقية والمغرب .

وعندما ظهرت فتنُ الخوارج الصفرية في أقليم طنجة منذ سنة 122هـ أي في عهد ولاية عبيد الله بن الحبحاب استدعى حبيبا ابي عبيدة بن عقبة ، من صقلية حيث كان

غازيا ووجهه لقتال ميسرة الخفير زعيم الصفوية في طنجة ، وكان من قبله قد ولي على القتال ، ابنه خالدا ابن حبيب بن أبي عبيدة الفهرى ، ولئن خسر العرب المسلمون امام الصفرية كثيرا من فرسانهم ورجالهم مثل خالد بن حبيب ، في وقعة سميت يسببب ذلك وقعة الاشراف سنة 122هـ قرب طنجة ، فان أباه حبيبا نجأ من ذلك ، وأستمر يناضل الى جانب الشرعية الخلافية في عهد الوالي كلثوم بن عياض القشيرى وقريبه ومساعده بلج بن بشر القشيرى - حتى سقط صريعا في واقعة كبيرة هي واقعة سبو أو بقدوره (بجوار فاس) (123هـ) بسبب سوء تدبير كلثوم وقريبه بلج في ميدان الحرب ثم بسبب اساءتهما الى الزعامات العربية العريقة من آل عقبة والى أهل القيروان أيضا .

- فقد قال بلج لأهل القيروان ليغيظهم « لا تغلقوا ابوابكم حتى يعرف أهل الشام منأزلهم» وهذا شيء مثير لأعصابهم ، ومطلب تأبأه الاخلاق العربية ، فكتب أهل القيروان يشكونه ، الى عميد الأسرة الفهرية ، حفيد عقبة حبيب بن أبي عبيدة ، وكان على راس قواته ، في منطقة شلف ، فكتب الى كلثوم بالقيروان يقول له :

ان ابن عمك السفيه قال كذا وكذا ، فارحل بعسكرك عنهم والا حولنا اعنة الخيل اليك»! فرد عليه كلثوم يعتذر

ويأمره بالبقاء حيث هو حتى يصله ، فلما وصله استهان به ، كما استهان به أيضا قريبه بلج الذي سب أسرة عقبة ، وقال مستهزئا أمام جمع من الشاميين «هذا الذي يحول اعنة الخيل الينا» وكان عبد الرحمن بن حبيب حاضرا الى جانب ابيه ، فنهض غاضبا وقال يا بلج ! هذا حبيب فاذا شئت فأعرض له للمقابلة !! وصاح الناس : السلاح ، السلاح ! فمال أهل افريقية وأهل مصر الى ناحية مع أهل عقبة ، ضد بلج وكلثوم والجند الشاميين ـ ان هذه الحادثة لتبرهن على مدى قوة نفوذ وتأثير الفهريين في سكان افريقية ، والتفاف هؤلاء حولهم كزعماء شعبيين ، وكمدافعين عن شرفهم ، وكرامتهم ضد أي معتد حتى ولو كان من ولاة الخلافة ومن زعماء العرب المشهورين .

فأي أرتباط أقوى من هذا ؟ وأيةعاطفة تقدير متبادلة كهذه ، بين آل عقبة ومسلمي افريقية ؟ .

ومع استعداد السكان لتأييد آل عقبة في مشاريعهم الى حد بعيد ، فان هؤلاء رضوا في هذه المرحلة بالعمل في اطار الشرعية مع قوات الخلافة الاموية ، حفظا للصف العربي ، وللمد الاسلامي أن يصيبهما التصدع أوالاضطراب .

فلما استهان بأمرهم كلثوم ، وقريبه بلج ، وتسببا برعونتهما ، ثم يرفضهما لرأي حبيب بن أبي عبيدة قائلين

له : ما اغنانا عن رأيك يا أبن أم حبيب ـ قلت تسببا في هزيمة سبو، وتشتت شمل الجند الباقين حيث أعتصم فريق منهم وعلى رأسهم بلج وعبد الرحمن بن حبيب بمدينة سبتة يتظرون مددا وعونا من اخوانهم عرب الأندلس وواليها الفهرى عبد الملك بن قطن .

ـ وفي هذه المرحلة لمع نجم عبد الرحمن بن حبيب، وبدأ في العمل الجاد الهادف ، الى تمثيل الدور الرئيسي ، في الأندلس وفي افريقية أيضا . ورأي ان خير وسيلة هي التأثير على بن عمه والي الأندلس ، لكي لا يسمح لبلج وجنده الشامية بعبور المضيق الى الأندلس ، فاستجاب له الوالي بيدان ظروفا دقيقة وضاعطة ، ومن ذلك ثورة خارجية نشبت في الأندلس وأشتد أمرها ـ جاءت فخففت من معارضة القهرى ، وابن عمه الوالي ، عسى أن يكون الجند الشامية عونا لهم لقمع ثورات البربر الخوارج ، وفعلا سمح لهم الوالي بالعبور، بعد أن شرط عليهم ، أن لا يبقوا أكثر من سنة ، ثم يعودوا من حيث اتوا ، غير أن بلجأ بعد أن ساعد الوالي ، مساعدة جمة ورأى خيرات الأندلس وخبر أمور سكانها بـ امتنع عن الخروج ، وقتل والي الأندلس ، واغتصب الولاية لنفسه ، باعتباره نائبا عن كلثوم بن عياض القشيرى في الأندلس . ـ إن هذا الحادث الشنيع حفز قر بيه وابن عصبيته الفهرية : عبد الرحمن على الأخذ بثأره

من بلج ، ـ وكاد عبد الرحمن ينجح في ارساء نفوذه كوال متغلب على الأندلس بعد قتل بلج ، ثارا لابن عمه ، لولا ان حنظلة بن صفوان الكلبي والي افريقية الجديد أفشل مشروعه حيث اسرع بارسال وال من عصبيته ، هو الشاعر ابو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، فحسم الموقف لصالح الشرعية ، ولم يبق أمام عبد الرحمن الا العودة بحرا الى تونس في سنة 127هـ .

وهنا تبدأ المرحلة الجديدة والحاسمة في حياة الفهريين آل عقبة بقيادة أظهر زعمائهم عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة .

33 ـ عبد الرحمن رأس دولة وراثة للفهريين في افريقية وبلاد المغرب .

ـ لقد بادر أهل تونس بالاستجابة ، الى دعوة عبد الرحمن بن حبيب ، فبايعوه على السمع ، والطاعة ، وعندما سمع حنظلة بن صفوان الوالي الشرعي ، بالأمر ، وبأن عبد الرحمن يخطو خطوته الثانية ، نحو مدينة جده القيروان عاصمة الولاية ليخلص له ولا سرته أمر افريقية ، أرسل اليه وفدا من شيوخ القيروان ، ليعرفوا منه حقيقة تحركاته ، وليحثوه على التزام الهدؤ والطاعة لوالي الخليفة الشرعي ، بعد الاتصال تحفظ عبد الرحمن على أعضاء الوفد ، ولم يسمح

لهم بمغادرة تونس نحو القيروان الا في ركابه ، وهم مصفدون بالحديد ، وقد عول على الضغط بواسطتهم ، ونفذ مخططه فعلا ، وهو يحاصر للقيروان ، اذ أعلن عن نيته في اخراج حنطلة من القيروان ، وقال : «أن رمي أحد من أوليائهم بحجر قتلتهم ، وكان هؤلاء من الوجوه ، والرؤساء ، لذلك التزم اقرباؤهم بالهدوء أما حنظلة بطل معركتي القرن والاصنام ضد الخوارج الصفرية ، والوالي الشرعي للأمويين وخليفتهم العظيم هشام بن عبد الملك ، فقد اشهد القاضي والعدول على مبلغ ألف دينار أخذه ، ليتجهز به في الطريق ، وترك القيروان تعففا عن خوض معركة ضد أبن حبيب ، وكان ذلك في بداية 127هـ . ومن يومئذ أصبح المجال حراً أمام ابن حبيب فدخل القيروان ، ونادى مناديه «لا يخرجن أحد مع حنظلة ، ولا يشيعه أحدٌ ! » فاستجاب الناس خوفا من بطشه ، فدعا حنظلة على أهل القيروان ـ وكان من أهل الدين والورع ، فأصابتهم محن وأوبئة وشدائد على مدى سبع سنين .

ـ على هذه الصورة انقطعت صلة افريقية بالخلافة الاموية في دمشق ؟

ـ وعلى هذه الصورة عرفت أفريقية تطورا جديدا في علاقاتها معها ، فقد استقبلت عهدا جديدا ؟ قوامه زعيم عربي مغامر ينتمي الى أعرق الأسر القرشية ـ ان هذا هو عهد

دولة الفهريين التي أمتدت حياتها (منذ 127هـ الى 140م) أي اربع عشرة سنة حفلت بكثير من الأحداث والوقائع .

ـ فما هي اركان هذه الدولة الجديدة ؟ أو بمعنى آخر، ما هي اسباب نجاح عبد الرحمن الفهرى في تأسيس كيان سياسي مستقل عن الخلافة في المشرق . ؟؟
وللاجابة عن ذلك تقول :

أ ـ الانتماء الى قريش ـ سوغ امام جماهير السكان المسلمين في افريقية فكرة الدولة العربية المغربية الجديدة ، باعتبار ان ذلك يتماشي وما جاء في الحديث الشريف .. الخلافة في قريش ..

ب ـ والانتساب الى قبيلة فهر ـ قبيلة عقبة بن نافع بن عبد القيس دعم جانب هذه الدولة التي تمتد أصولها الأولى الى صحابة فاتحين ، ورواد مجاهدين .

ج ـ وماضي عقبة وثراته ، وخدماته في الميدانين العسكرى والديني في أفريقية ، ساعدت مؤسس النظام كثيرا ، اذ الناس في افريقية يرون عقبة مباركا فيه وميمونا ، لذلك توسموا يمنا وخيرا وبركة في ابنائه وفي أحفاده .

د ـ وقد لقي هذا النظام تأييدا ودعما قويين من عناصر قريش ومن السكان في حواضر افريقية وبواديها ـ

عربهم وبربرهم ، فأهل تونس لا حظنا مساندتهم لعبد الرحمن لأول وهلة ، وسيرهم معه لاخذ القيروان .. ورأينا أيضا استجابة أهل القيروان لنداء عبد الرحمن لدرجة انهم امتنعوا من أداء واجب المجاملة تجاه وال شرعي مجاهد ، دافع عن كرامتهم وحريتهم ضد الخوارج الصفرية .

هـ ـ وميزات مؤسس النظام القهرى ، هي الأخرى ساعدته كثيرا على ادراك النجاح : فروح المغامرة ، والشدة والتقلب والاعتداد بالنفس وبالماضي الحافل بالامجاد في المغرب ، وبلاد الاندلس أيضا ، وسرعة الحركة والدهاء والمهارة في حبك الحيل والدسائس ، هي صفات عرف بها عبد الرحمن بن حبيب القهرى . الذي يبدو وكأنه انتقم لشرفه ، من حنظلة الذي فوت عليه مشروع الاستحواذ على الأندلس ، عندما أرسل رجلا من عصبيته كوال جديد .

فأراد عبد الرحمن أن يبرهن له على قوته وحنكته ، فتحداه وطرده الى المشرق ، واقام نظاما انفصاليا هو رأسه وزعيمه ، أقامهبجهده وبسيفه ، وبكفائته الشخصية ، وبزعامته الظاهرة والمحترمة عند جماهير السكان .

ـ لقد عبر عبد الرحمن عن أفكاره الجديدة ، من خلال رسالة أرسلها الى ابي جعفر المنصور العباسي ، وصحبتها هدية رمزية تتكون من كلاب وبزاة ، وذهب

قليل ، ونصها «دإن افريقية اليوم اسلامية وقد انقطع السبي منها .»

أي ان الخلافة في نظره يجب أن لا تنتظر أموالا كثيرة، أو تحفا أو طرائف في هذا العهد ، كالتي كانت تصلها من افريقية في عهد الفتح ، لأنها اصبحت مثل بقية اجزاء العالم الاسلامي ، يهمها الاعتراف بالسلطة المعنوية والروحية للخليفة العباسي ، لكن تراثها وثرواتها يجب أن تصرف بالعدل وفي وجوه البر والاصلاح ، والتعمير.

ولأن ابا جعفر فهم مغزى عبد الرحمن فقد غضب ، وأرسل اليه يهدده ، ويتوعده ، فما كان من عبد الرحمن الا أن جمع الناس ، وأخذ في سب أبي جعفر المنصور ، وقال «انني ظننت أن هذا الخائن يدعو الى الحق ، ويقوم به ، حتى تبين لي خلاف ما بايعته عليه ، من اقامة العدل، واني الآن قد خلعته كما خلعت نعلي هذا !! وقذفه من رجله !! »

ـ وأمر بخلع شعار العباسيين ، وهو السواد ، قائلا : أنه لباس أهل النار !! ـ وانها لثورة عارمة !! .

ـ بدأت القطيعة بين مؤسس نظام القهريين ، والخليفة أبي جعفر المنصور العباسي ، ولقد أوغل عبد الرحمن في حركة العداء والنقد للعباسيين ، فأزعج بذلك جمهورا

نسبيا كبيرا ، من العرب ، والبربر كانوا يرون أن الخليفة العباسي ، هوصاحب السيادة الشرعية على هذه البلاد ويجب أن يستمر كذلك ويصحح الوضع على هذا النحو ، واستمر التحرك ضد الانفصال ، وقوى وتدعم بمسأندة أحد اخوة عبد الرحمن ، وهو نائبه وقائد جيشه الياس بن حبيب ، الذي أغرى بأخيه وشحن بالغضب عليه وما كان إلياس ليصل الى حد التآمر على حياة أخيه ، لولم يدفع بجملة عوامل أخرى في مقدمتها أ .

أ ــ حرص عبد الرحمن على جعل الحكم وراثيا ينتقل منه الى ابنه حبيب ، وليس الى أخيه اليأس رغم كبر سنه ، وجدارته ، وخدماته الجليلة للنظام الجديد .

ب ــ وموقف عبد الرحمن من أصهار أخيه الياس من الأمويين الفارين من بطش العباسيين حيث قتل بعضهم خوفا من قيامهم عليه ، جعل زوجته الأموية تغريه بأخيه 3وتدفعه بحجة أنه البادىء بالتحدى ، وبالاستهانة فازداد الياس بذلك عداء لأخيه وبدأ يتربص به .

ج ــ وقد بارك التآمر على عبد الرحمن أخ ثالث لهما. هو : عبد الوارث بن حبيب ، حسدا لأخيه ، ورغبة في الوصول الى ما وصل اليه .

د ـ كذلك فقد ساند حركة الاخوة في تآمرهم على اخيهم عنوان مجدهم ، ووحدتهم وعميد بيتهم ، شق من عرب قريش وزعمائها كرهوا من عبد الرحمن موقفه المتشدد والرافض لسيادة الخلافة العباسية على أفريقية ممثلة في شخص أبي جعفر المنصور بأني بغداد (سنة 145هـ) والمؤسس الحقيقي لدولة العباسيين .

ـ أن هذه العوامل مجتمعة دفعت الياس الى تنفيذ خطة الناقمين على عبد الرحمن ، حيث قتله في بيته وهو مريض ، واستولى على الحكم في القيروان وأفريقية 3سنة 137هـ وعندما بحث على ولي العهد ، حبيب لم يعثر له على أثر ، لأنه استطاع بمهارة الافلات من القيروان الى تونس حيث نزل في حماية احد اعمامه وهو عمران وكان واليا عليها من قبل عبد الرحمن وفي تونس لحق به مواليه واتباعه ، وحزب ابيه ، وهكذا انقسم البيت القهرى الى مجموعتين متناحرتين : مجموعة اليأس وعبد الوارث ، ومجموعة حبيب وعمه عمرأن ، هذا مع موالي واتباع كلتا المجموعتين من عرب وبربر ـ وكادت الحرب أن تندلع بين المجموعتين لولا العقلاء من الفريقين الذين وجدوا حلا وسطا للشقاق الأسرى ، ولصراع على الحكم ويتمثل في تقسيم البلاد على عمران والياس وابن اخيهما حبيب ـ

لكن الياس غدر بأخيه عمران ونفاه الى الاندلس ، كما تحرش بأبن أخيه حبيب حتى رضي بمبدأ اللحاق بعمه في الاندلس ، غير أن أنصار أبيه ديروا خطة الانتقام من الياس ولارجاع الأمر الى صاحبه حبيب ، فالتفوا حوله وساعدوه على احتلال بعض المدن والقلاع في افريقية واستعمل هو بدوره الحيلة ، لاستدراج عمه الياس خارج القيروان ، ثم واجهه في ميدان الحرب ، ثم تظاهر بانه مواقف له الى الغد ، ومراقب لحركاته ليلا حتى يطلع النهار ، فلما أمن عمه جدّ في السير حتى دخل القيروان ، وعمه عنه غافل ، فاحتلها وخرج منها على رأس جمع كبير ، وفي هذه المرة أظهر حبيب في صراعه من أجل الثأر براعة ، وانسانية أيضا ، فنادى عمه : لم نقتل صنائعنا وموالينا وهم لنا حصن ؟ ولكن ابرز أنت وأنا فأينا قتل صاحبه استراح منه ، فناداه الناس : قد انصفك يا الياس ! فتبارزا مدة ثم تغلب حبيب ، وضرب عمه فأسقطه ، ثم وثب عليه ، واحتز رأسه ، ورفعه على رمح ، ودخل به مدينة القيروان ، حيث فرض سلطانه وغلبته على سكانها الذين ملوا الشقاق والحروب والفتن بين القهريين ، وهكذا أخذ حبيب بثأره من قاتل أبيه غير ان بقايا السيوف من انصار عمه الياس يقودهم عمه الآخر عبد الوارث لم يسلموا بالأمر الواقع ، ولم يدخلوا القيروان ، خوفا على انفسهم من بطش حبيب ، وفضلوا الالتحاق الى الدّ اعداء الفريقين

قبيلة ورفجومة الخارجية الصفرية حيث كانت في مساكنها في منطقة نفزاوة ترقب الاحداث وتنتظر دورا لزعيمها وكاهنها المتنبيء ، عاصم بن جميل الورفجومي .

34 ـ الصفرية ونهاية نظام الفهريين سنة 140هـ :

ـ لقي عبد الوارث وجماعته الترحيب والحماية من قبيلة ورفجومة ، فكان هذا بمثابة اعتداء على حبيب بن عبد الرحمن صاحب الأمر في القيروان الذي ارسل الى زعيم ورفجومة ، يطلب منه تسليم القتلة الفارين من قبضته ، وفي نفس الوقت اعد عدته للمواجهة الحربية مع هذه القبيلة التي عرف مسبقا أنها لن تستجيب لطلبه . وفي اللقاء الذي تم بين الطرفين فيمضاب نقزاوة ـ جنوب غربي تونس أنهزم حبيب أمام عاصم بن جميل الذي الجأه الى التحصن بقابس ، بعيدا عن مركز قوته واتباعه ، في القيروان التي بقيت في هذه المرحلة ، بدون حماية ، أو دفاع يضمن سلامتها من غزوخارجي .

وهكذا كان الوقت مناسبا لعاصم بن جميل فزحف على القيروان على رأس قواته من الصفرية ، وتظاهر بأنه انما جاء لتحريرها من قبضة حبيب وارجاعها من جديد الى حظيرة الخلافة العباسية ، واقامة الدعوة فيها ، باسم الخليفة

الشرعي ، صاحب السيادة أبي جعفر المنصور ، وبما ان جمهورا سنيا كبيرا من قريش ، وسائر العرب ، بقوا على ولائهم للمنصور ينتظرون مثل هذه الفرصة ، فانهم خدعوا بهذه الحيلة ، وتعاونوا مع عاصم بن جميل وكاتبوه يعلنون ترحيبهم به في مدينتهم .

لذلك لم يلق المقاومة عند دخول المدينة الا من جماعات قليلة لم تنطل عليها الحيلة ـ وكانت هذه الجماعات يقودها نائب حبيب ، وقاضي القيروان ، ابو كريب جميل بن كريب المعافرى ، الذي استبسل في القتال ، دفاعا عن حرمة القيروان ، حتى قتل في المعركة في مكان سمي وادي أبي كريب .

وعندما دخل عاصم المدينة وانتشرت قواته في ارجائها أظهر ما كان يعتقده وأساء السيرة ، ونكل بسكانها وانزل عقوبات كبيرة ، بكل من اشتبه في أمره .

ـ ويومئذ نال عرب قريش ـ عصبية الفهريين ـ اذى كبير حيث ، قتلوا في كل مكان وجدوا فيه ، حتى المقدسات الاسلامية لم تسلم من أذى ورفجومة ، فربطوا دوابهم في مسجد عقبة ، ودنسوه ، وتغالى بعضهم فارتكب فيه الفواحش حقدا على صاحبه ، وعلى الفكرة التي يمثلها هو وجمهور السنة في القيروان وافريقية .

وهكذا ندم الذين وثقوا في ورفجومة الصفرية ، ورجوا خلاصا من اذاها وشرها ، وعنصريتها المقيتة ضد العرب وضد قريش خاصة .

وقد حاول حبيب مع رجاله اثناء تشردهم أن يقتحموا المدينة ويطردوا منها هذه الفئة الباغية ، فوجدوا مقاومة عنيدة فتركوها الى منطقة جبال أوراس الحصينة ، لمزيد من التهيئة والاعداد ـ وهنا وجد حبيب ما كان يبتغيه من سكان الاوراس المحاربين الكرماء ـ فأعانوه ، ودعموا دفاعه وصموده ، ضد قوات عاصم بن جميل الذي لحق به في الأوراس ، تاركا نائبه عبد الملك بن أبي الجعد اليقرني الزناتي في القيروان .

وفي الاصطدام الذي وقع بين قوات حبيب ، وقوات عاصم الصفرى في الأوراس تمكن حبيب أخيرا من أحراز النصر ضد خصمه ، والثأر لهزيمته ، بجوار نفرآوة ، والثأر أيضا لقتلى القيروان ، فقتل عاصما وتكل برجاله تنيكلا شديدا ، وتابع سيره على الأثر ـ نحو نائبه ابن ابي الجعد لتحرير مدينة القيروان .

وبظهران الاعياء نال من حبيب ومن جماعته ، كما يبدو أن الغاضبين منه لموقفه من الخلافة ، والحانقين عليه من بقايا قريش ، لتسلطه واستبداده والخائفين من عقابه لموقفهم المتخادل والمؤيد لدخول ورفجومة الى القيروان . يبدوأن

كل هذه العوامل كانت وراء هزيمته ، لأنه لم يلق مساعدة من سكان المدينة وتركوه يلقى مصيره وحده ، على يدى قوات ورفجومة وقائدها عبد الملك بن أبي الجعد اليفوني الذي تعزز بهذا النصر، ثم بقتل حبيب مركزه ، ومركز قبيلته في القيروان ، وبقتل حبيب سنة 140 هـ ، بجوار القيروان تنتهي أسرة القهريين ، وتطوى أعظم صفحة كتبها بالجهد والجهاد ابناء عقبة واحفاده من قهر وقريش عامة : ، ويعني هذا فشل أقدم تجربة سياسية محلية كان اساسها عرب المغرب من نسل عقبة بن نافع القهرى ـ كما يعني فشل الزعامة الشخصية في تكوين ، واستمرار الدول والأنظمة السياسية اذا لم تسندها قواعد شعبية عريضة ، كما يعني أيضا وأخيرا فشل الفكر المحلي القائم على الانفصالية عن دولة الخلافة العربية الاسلامية حامية الاسلام والمسلمين في المشرق وفي المغرب .

ـ فلنبحث اسباب هذا الفشل ، ولنقل كلمة عن خدمات نظام القهريين .

35 ـ أسباب فشل تجربة نظام الفهريين :

أ ـ قامت دولة القهريين على اساس عصبية خاصة هي عصبية فهر وآل عقبة بن نافع منهم بنوع خاص ، وساندت هذه العصبية الخاصة ، عصبية واسعة وشاملة ، وعامة ، هي

عصبية قريش ، وكل من حالفها من عرب الشمال المضرية ، وانضاف الى هاتين العصبيتين الاسرية ثم القبلية التفاف جماهير السنة وأغلب السكان في حواضر أفريقية وبلاد المغرب حول نظام القهريين الذين اصطبغ رجاله فضلا عن ذلك بصبغة مغربية عربية خاصة ميزتهم عن سائر من أستقروا في هذه البلاد من أبناء الفاتحين الأوائل .

ـ وبما أن الدول تبقى ما بقيت عصبيتها الخاصة متماسكة ، وما بقيت عصبتها العامة ملتفة وحامية ـ وتزول وتنتهي بالتدريج اذا تسرب الخلاف والشقاق الى المؤسسين ، واعوانهم واحلافهم ومواليهم ، فان آل عقبة فعلا بسبب خلافهم الداخلي الاسرى حول السلطة ، وحول الولاء لمن يكون هل للشعب المغربي ؟ أو للخلافة العباسية ؟ تسببوا في ضياع نظامهم العتيد ، فانبروا يكيدون لبعضهم ويصفون بعضهم بعضا ، وهم قلة مختارة وانقساماتهم أثرت على موقف عصبيتهم القرشية ، فظهر فيها الانشقاق والانشطار بين هذا الفريق وذاك .

ب ـ وموقف آل عقبة جميعا ، من العلاقة مع الخلافة العباسية في بغداد ، اساء الى وضعهم امام جماهير السنة ، الذين بقوا معارضين باطنا لنظام القهريين ينظرون اليهم نظرتهم الى أي حكام متغلبين غير شرعيين ،

وينتظرون فقط الفرص المناسبة للعمل ضدهم جهارا لفائدة الخلافة الشرعية صاحبة السيادة على هذه البلاد .

ج ـ وحرص آل عقبة على أنشاء حكم قوى ووراثي في افريقية وبلاد المغرب جعلهم يصطدمون بقوى اقطاعية هنا وهناك في مدن وجهات من افريقية تبحركها زعامات محلية من العرب والبربر ، رأت أن مصلحتها أنهاك هذا النظام ومواجهته قبل أن يستفحل أمره ، ويفرض الوحدة والنظام والأمن والسلام على جميع القوى الصغيرة ، ولهذا ليس صدفة أن يثور جماعة من العرب والبربر في وقت واحد ضد عبد الرحمن مؤسس النظام ، فهذا عروة بن الوليد الصدفي (عربي) يثور في تونس الحاضرة الافريقية الثانية وهؤلاء عزب الساحل التونسي يعلنون ثورتهم أيضا ، وهذا عطاف الاسدى يثور أيضا وهؤلاء البربر يعلنون ثوراتهم في الاماكن الجبلية الحصينة ، كما ثأر ثابت الصنهاجي في باجة افريقية واحتلها.

لقد ساد جو الثورة في بداية عهد الدولة بقصد تشتيت جهود رجالها ، واسقاطها ، أو فرض الطائفية ونظام الطوائف عليها ـ غير ان عبد الرحمن لم يرض بالأمر ، وقلم اظافر الثوار من العرب والبربر وامعن في قتلهم «وابتلاهم بقتال الرجال صبرا» مستعينا في ذلك بمهارته وحيلته وقوته وشدة اخيه اليأس قائد الجيش .

د ـ وحرص القهريين على الدفاع بحرارة وبقوة عن مذهب السنة والجماعة جعلهم يصطدمون بفئات الخوارج الصفرية والاباضية ـ ويجب التذكير هنا بأن هؤلاء الخوارج كانت لهم معارك مع جند الخلافة آخرها معركتا الاصنام والقرن ، بجوار القيروان ـ ولئن انتصرت قوات الخلافة بقيادة حنطلة بن صفوان ـ فإن الخوارج بقوا يمنون أنفسهم بالثأر ، وبمعنى أخر فان القهريين ورثوا عن الولاة السابقين للخلافة ، تركة مثقلة بالنضال المرير ضد فئات الخوارج الاباضية والصفرية في بلاد المغرب وافريقية .

ولهذا نجد القهريين منذ البداية يصطدمون بالاباضية في طرابلس وجبل نقوسة ، والمنطقتان معا مشمولتان بنفوذ القهريين ، وكانت بينهم وبين القهريين جولات ومعارك سقط اثنائها ضحايا من الفريقين ، لكن كتب النصر فيها لعبد الرحمن القهرى واخيه الياس وعمالهما على المنطقتين .

ـ بيد أن تحركِ الصفرية من منطقة تفراوة بقيادة ورفجومة مع من أنضم اليها من احلافها الاباضية ، في اطار نجدة عبد الوارث بن حبيب القهرى وسكان القيروان لارجاع الخطبة والدعوة للخلافة العباسية كان نذير شؤم بالنسبة لنظام القهريين الذين أعياهم الصراع الداخلي والتفكك

الاسرى وغلبت عليهم الانانية على حساب مصلحة الاسرة والنظام ـ وهكذا انتهى الأمر الى اسقاط النظام نهائيا وقتل آخر ممثليه حبيب بن عبد الرحمن سنة 140هـ، وبذلك أخذ الصفرية بثأر هزائمهم وهزائم الاباضية من قبل في ساحات افريقية والمغربين الأوسط والأقصى .

36 ـ خدمات نظام الفهريين :

ـ ورغم هذه النهاية المحزنة لنظام عربي قريشي عتيد ، فبحسبه وحسب رجاله أنهم تركوا بصماتهم هنا وهناك في أرض المغرب الاسلامي فاعاد عبد الرحمن بن حبيب ذكرى جده عقبة بتلك الحملات العسكرية التي وجهها الى الاماكن القاصية في تلمسان لنشر الأمن والسلام ، وفي السوس الأقصى حيث مضارب مسوفة من صنهاجة اللثام ـ واهتم بشؤون طرابلس الغرب فاعاد تجديد سورها وحماها وعمرها بالسكان ، كما اهتم بالأندلس اهتمام عارف بشؤونها بدقة ، فارسل بتعيينه الى ابنه يوسف الفهري بعد أن رشحه سكان الأندلس لفضله وقيمة ابيه وجده ـ

«ولما دوخ المغرب كله وهذأ من به من القبائل داخل أهل المغرب منه الرعب والخوف» واستكانوا الى النظام والراحة ، التفت الى الغزو الخارجي ضد دار الحرب تأمينا

لحدود دولة الاسلام في افريقية وبلاد المغرب وغزا صقلية وسردينية وبلاد الأفرنج عبر الأندلس وكانت نتيجة ذلك اموالا كثيرة ومغانم جمة وسبايا ـ وفرض هيبة الاسلام على هذه المناطق المجاورة لحدود الأندلس وبلاد المغرب ـ وعمله في هذه الميادين يعتبر امتدادا لجهد اسلافه من قبل خاصة اباه حبيبا بن ابي عبيدة بن عقبة بن نافع القهرى الذي عرفته هذه البلاد غازيا ومحاربا لا تهزم له راية ، ولا يفل له حد .

وكما ترى ، فخدمات آل عقبة وأحفاده ، كانت بناءة ومفيدة ، وفي اطار استمرارية العمل الناجع من أجل خير البلاد والعباد ـ لا غرابة ففي عصر متأخر نسبيا أي سنة 245هـ اشترت فاطمة بنت محمد القهرية المعروفة بأم البنين ارضا بفاس الادريسية ، ووضعت اساس مسجد فيها هو الذي عرف بمسجد القرويين ويقع في عدوة القرويين ، ومنذ أن شرع في بنائه وهي صائمة حتى تم البنيان ، فصلت فيه شكرا لله ـ فكانت بذلك نموذجا بين سيدات هذا البيت العربي العريق ـ دينا وورعا وحبا لأهل البلاد وسعيا في خدمتهم .

وأضحى هذا المسجد بمثابة جامعة اسلامية كبرى أدت خدمات ثقافية ودينية لسكان بلاد المغرب والسودان

الغربي ـ ومن احفاد هذه السيدة الأسر القهرية في حاضرة فاس .

ـ وكانت قد سبقتها جامعة القيروان أو مسجدها الجامع في افريقية الاسلامية ، ثم جامع الزيتونة الذي غدا هو الآخر جامعة اسلامية يدين لها بالفضل المسلمون والمثقفون في بلاد المغرب الاسلامي ، وقد وضع اساسه حسان بن النعمان ، وكما كان لمسجد سيدى عقبة حيث يرقد جثمانه في سيدى عقبة بالزاب ذور ثقافي ، وتوجيهي بين سكان المنطقة وغيرها من بلاد الجزائر الكبزى .

ـ وهذا لا يعني سوى حقيقة واحدة : هي سهر آل عقبة على زرع المؤسسات الدينية والثقافية في بلاد افريقية والمغرب خدمة لسكانها في النواحي الروحية والفكرية اقتداء بجدهم الفاتح العظيم .

خاتمة

وبعد

فهذا هو عقبة الصحابي القرشي الجليل ، والتابعي المستجاب ، والفارس القهرى الشاب ، صاحب الطلائع الكشفية والاعمال الحربية ، والمنشآت المعمارية ، والانجازات الثقافية والدينية ، في الميادين المغربية .

هو فذ بين الشباب الدينيين الطموحين العاملين بجد من أجل سيادة الحب ، والخير ، والكمال .

وفذ في فن القيادة ، والاستراتيجية ، بين شباب القادة وشيوخهم من نتاج حركات الفتح الاسلامي ، في ميداني المشرق والمغرب .

ان سيرته سيرة رجل وهب نفسه للجهاد من أجل اعلاء كلمة الاسلام .

وللرباط من أجل الحفاظ على قيم الاسلام ، ودولة الاسلام ومبادىء الاسلام .

ج ـ والدعوة الهادفة ، لجذب مزيد من الانصار لدين الاسلام وثقافته وحضارته السامية البهيجة .

انها سيرة رائد سبق غيره .

في كشف الصحراء ومجاهلها وخيراتها قبل أن يظهر المكتشفون . الأوربيون بأكثر من ألف عام .

د ـ وفي اقرار استراتيجية الاستقرار العربي الاسلامي نهائيا بأرض المغرب الاسلامي تحريرا له ، وتوحيدا لاجزائه ، وسكانه ، في اطارعربي اسلامي .

ه ـ وفي بداية الاهتمام بأرض الأندلس واروبا لمد رقعة الاسلام والدولة العربية انطلاقا من القواعد الثابتة في أرض المغرب الاسلامي .

و ـ وفي إظهار الرغبة الجامحة في الارتباط بالأرض المغربية والبقاء بين ربوعها ، والاستشهاد على أديمها .

ز ـ وفي غرس مثله ومبادئه في أبنائه وأحفاده الذين عرفتهم بلاد المغرب والأندلس ، محاربين شجعانا ، ودعاة ما هرين ، وخبراء ممتازين ، ومحامين أكفاء ، غيورين على حرمة البلاد وسكانها ، حتى لوكلفهم ذلك الوقوف ضد الخلافة الشرعية ، وولاتها المشهورين . ـ وهي سيرة عطرة بحب الخير ، وهاجة بنور الحق ، تصلح درسا متكاملا

للشباب ، والكهول والشيوخ ، في بلادنا ، وفي كل بلاد الاسلام .

ــ فيا حبذا لو تشرفت بعض مؤسساتنا العلمية الكبرى مثل الجامعة الاسلامية بقسنطينة ، وبعض مؤسساتنا العسكرية الكبرى مثل الأكاديمية باسم هذا القائد العظيم ، في الثقافة ، وفي الاستراتيجية .

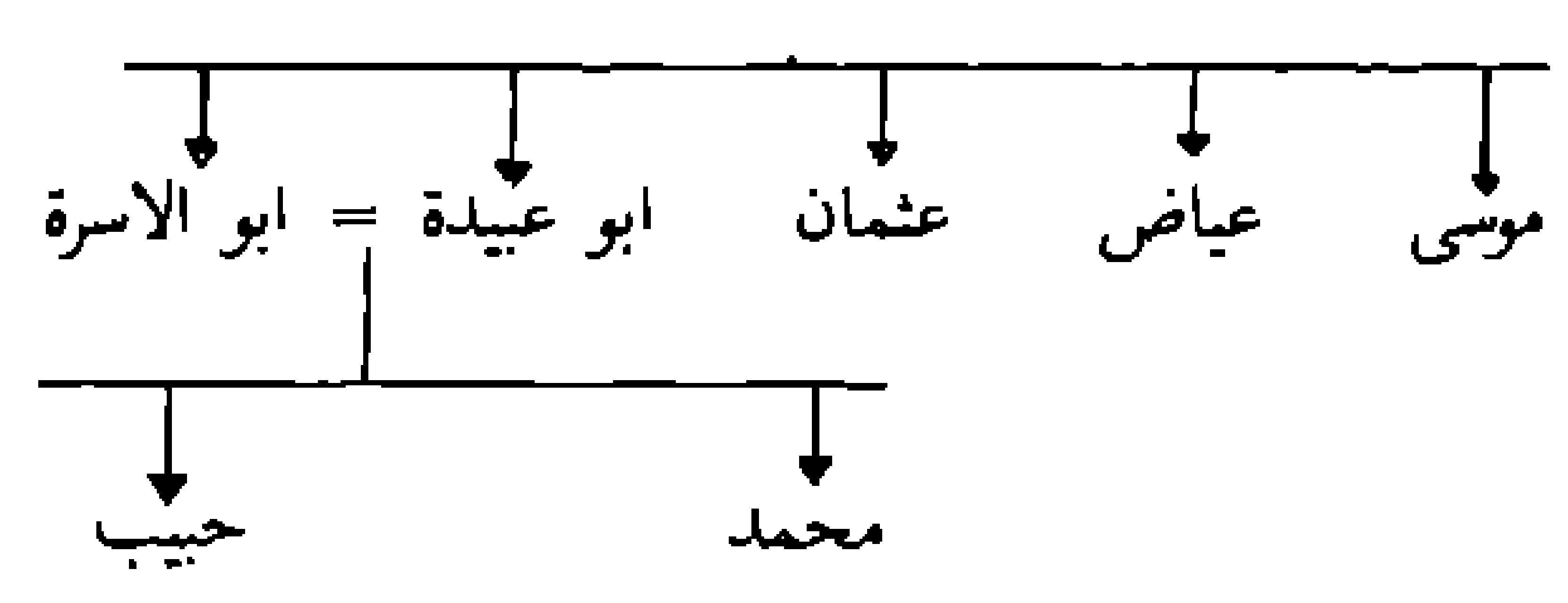
ــ ويا حبذا لو تنبه المشتغلون بفنون التمثيل السينمائي والاخراج والانتاج ، لسيرة هذا البطل ، فانتجوا حولها مسلسلا تاريخيا بعيدا عن التهويل ، والتزييف ، والمبالغة ، والافتراء على حوادث التاريخ تلك التي أصبحت ميزة بعض المسلسلات التجارية التي تدور حول بعض رجال الاسلام ، والعلم ، والاصلاح ، وعندما يتم هذا في بلدنا المسلم العريق في الجهاد ، يكون أبلغ اعتراف بجميل ابي الشهداء ، وسيد المجاهدين ، عقبة بن نافع الفهرى القرشي .

ـ جدول بتسلسل الاسرة الفهرية

عبد القيس الفهرى

نافـع

عقبة (ت 64 هـ = جـد الاسرة



عبد الرحمن | الياس | عبد الوارث | خالد | عمران
(ت 137هـ) | (ت 138) | (ت بعد 140هـ) | (ت122هـ) | (ت 137هـ)

موقعة الاشراف

مؤسس النظام

حبيب = آخر أمراء الفهريين

(ت 140هـ)

عبد الرحمن الصقلي ، دوره في الأندلس

(ت 166هـ) بعد فشله في اسقاط صقر قريش في قرطبة .

فهـرس

سحب الطباعة الشعبية للجيش

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يهدى ويوضع في المكتبات ولا يباع

ISBN : 978-9947-24-102-8
9 789947 241028